

أبو الحسن الندوي

النبي الخاتم
صلوات الله وسلامه
عليه وآله

المختار الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين
وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ٠٠ فهذه الرسالة التي نتشرف بتقديمها ونتقرب الى الله
بعرضها ، كان من المفروض اضافتها كفصل مستقل الى كتابنا
« النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن » وهو مجموع محاضرات ألقاها
المؤلف فى الجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة فى ذى القعدة
١٣٨٢ هـ وقد كانت ست محاضرات حضرها واستمع اليها أبناء
الجامعة وأساتذتها ونخبة من كبار العلماء وأعيان المدينة ، وتلقيت
بالقبول وحسن الاصغاء وصدرت ثلاث طبعات للكتاب أولاها فى
الهند والثانية فى القاهرة ، والثالثة فى بيروت ، والطبعة الرابعة
فى القاهرة والخامسة فى طريقها الى الصدور فى دمشق .

وكانت طبيعة الموضوع تقتضى أن يكون البحث فى اختتام
النبوة وكون محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الرسل
وخاتم النبيين ، هو نهاية المطاف فى هذا الكتاب ومسك الختام ولكن
المؤلف أعجلته الظروف عن الحديث فى هذا الموضوع الذى لا يقبل
المر السريع والنظر العابر ، وكان يتحين فرصة يتفرغ فيها لهذا
الموضوع الجليل وينصف له انصاف رائد للحق وباحث علمى ،
وتحول مسئولياته الدعوية وأشغاله التأليفية دون تحقيق هذه
الرغبة حتى مضى على ذلك أكثر من عقد من السنين .

وقد أثار بعض المغرضين فى الزمن الأخير حول هذه العقيدة نقعا
وجعلوها من القضايا التي تحتاج الى عرض جديد واقناع مزيد

دين يبلغ ذروة الكمال ، وأمة

تضطلع بأعباء خلافة النبوة :

تمت ارادة الله العليمة الحكيمة ، القادرة القاهرة ، فى البلوغ بهذا الدين - الذى سماه الاسلام - الى حيث ارادته حكمته ورحمته ، واقتضته حاجة البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده، وربى أمة تقلدت مهام النبوة ومسؤولياتها من غير نبوة ، وكلفت النهوض بالدعوة ، وصيانة الدين من التحريف ، والوصاية على العالم ، والحسبة على البشرية فى كل زمان ومكان ، وفى كل عصر ومصر ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

وتحقق فى علم الله ، وفى قضائه وقدره وجود خلفاء الرسل ، وأئمة الهدى ، وأطواد فى العلم واليقين ، ينفون عن هذا الدين فى كل زمان « تحريف الغالين . وانتحال المبطلين . وتأويل الجاهلين » وأخبر بذلك لسان النبوة ، فقال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » (٢) .

(١) سورة آل عمران : ١١٠

(٢) رواه مسلم عن ثوبان .

اعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانقطاعها بعده :

ولما تحقق كل ذلك فى عالم التكوين والتشريع - وقد سبق به علم الله وقضاؤه - أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوقف عليه سعادتهم فى الدنيا ، ونجاتهم فى الآخرة بالنبي الذى يأتيه الوحي من الله عن طريق جبريل « الروح الأمين » خاصة :
والملائكة عامة (١) .

وذلك معنى النبوة ، فيقول الله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون » (٢) ، ويقول : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » (٣) ، ويقول : وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي ما يشاء انه عليهم حكيم (٤) ، ويقول : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (٥) ، ويقول : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى » (٦) ، ويقول : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على

(١) يظهر من تتبع الآيات القرآنية ، والسنة الالهية فيما يختص بالانبيا المرسلين أن جبريل هو الواسطة غالبا . وفى عامة الأحوال بين الله تبارك وتعالى ، وبين الانبياء فى وحي النبوة والشرائع ، وتدلل على ذلك دلالة واضحة الآيات التى نقلناها ، ولكن أكثر المتكلمين ومن صنف فى العقائد لم ينوهوا بكون جبريل هو الواسطة الغالبة فى شأن النبوة والرسالة واقتصرُوا على ذكر الوحي .

(٢) النحل : ٢ . (٣) الشعراء : ١٩١ - ١٩٥ .

(٤) سورة الشورى : ٥١ ، وذهب أكثر المفسرين الى أن المراد بقوله : ويرسل رسولا ، الملك .

(٥) النجم : ٣ - ٧ .

(٦) سورة النحل : ١٠٢ .

قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين» (١) ،
 ويقول : « انه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين •
 مطاع ثم أمين • وما صاحبكم بمجنون • ولقد رآه بالأفق المبين •
 وما هو على الغيب بضنين • وما هو بقول شيطان رجيم » (٢) .

أما العلوم الوجدانية والتلقائية ، والحكم والمعارف ، وبعض
 الأخبار التى يلهمها بعض النفوس الزكية أو أصحاب الرياضات
 والمجاهدات ، والفواضل فى العلوم والحقائق ، وما قد يسمعه بعض
 الناس من هواجس ونداءات غيبية ، فليست من النبوة فى شئ ،
 وقد يسمعا بعض أصحاب الرياضات من غير المسلمين ، وقد
 استفاض ذلك ، فانكاره من المكابرة ، وليست دليلا للهداية ، فضلا
 عن النبوة والرسالة ، وقد صح فى حديث صحيح أن رسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لقد كان فيمن كان قبلكم من
 بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء » (٣) ، وأعلن

(١) البقرة : ٩٧ • (٢) سورة التكويد : ١٩ - ٢٥ •

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة فى مناقب عمر رضى الله تعالى عنه •

قد صرح الشيخ محى الدين ابن عربى الحاتمى الطائى الأندلسى (م ٦٢٨ هـ)
 بأن الهام الأولياء وأصحاب الرياضات محصور فى العلوم والأخبار ، لا فى الأحكام
 والشرائع ، وما كان من ذلك فلا يعتمد عليه ، ولا يعبأ به أصلا • (راجع
 « الفتوحات المكية » باب ٣١٠ ، ج ٣ ص ٥٠ وج ٢ ، باب ٢٨٢ ، ص ٨٢٣) •

وقال شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية (م ٧٢٨ هـ) فى
 كتاب النبوءات بعد ما ذكر أن الوحى يتناول وحى الأنبياء وغيرهم ، كالمحدثين
 الملهمين « فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى اليهم هذا الحديث الذى هو لهم
 خطاب والهام ، وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين فى كل ما يقع لهم ، فانه قد
 يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إحياء الرب ، بل من إحياء الشيطان ،
 وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء •• الخ ص ٦٧) •

وقد توسع فى هذا الباب محققو الصوفية ، وأئمة المعرفة والتحقيق ، ومن
 أراد التفصيل فعليه بكتب القوم ، خاصة رسائل الامام أحمد بن عبد الأحسد
 السرهندى (م ١٠٣٤ هـ) •

• أن النبوة قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك كله في عبارات صريحة مكشوفة ، لا يتطرق إليها شك ، ولا ترتقى إليها شبهة ، ولا يجد متسعا للنقاش فيها ، وإثارة الشكوك حولها إلا من في قلبه مرض ، أو كان له غرض .

أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة :

• واتخذ القرآن لذلك أساليب متنوعة بليغة ، عميقة الأثر في النفس ، آتية القيمة عند العقل .

• منها ما يختص بصاحب الرسالة الذي ختم به الأنبياء
واتتهت عليه سلسلة النبوءات ، فقال :

« ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً » (١) . وقد استخدم القرآن لغرس هذه العقيدة والفكرة لغة وتعبيرات ألفها العرب الذين نزل في لغتهم القرآن ، وكلفوا فهمه ، ثم تبليغه إلى العالم وهي اللغة التي كانوا يتفاهمون بها ، ويقضون بها حاجة في نفوسهم ولم تكن في لغتهم - على سعتها وغناها - كلمة أدل على مفهوم الانتهاء والاكمال من كلمة « الخاتم » وذلت به ألسنتهم في حديثهم وشعرهم ، ولا تعرف لغتهم للخاتم والختم معنى غير ما أراه القرآن من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذي لا نبي بعده » (٢) .

(١) الأحزاب : ٤٠ .

(٢) راجع « لسان العرب » لابن منظور ، و « صحاح العربية » للجوهري .
و « المحكم » لابن سيده . و « القاموس المحيط » للفيروزآبادي . و شرحه « تاج العروس » للزبيدي ، والمراجع اللغوية وكتب التفسير المعتمد عليها .

صفات لا تليق الا بالنبي : الخالد والرسول الخاتم :

وكذلك قد وصف القرآن صاحب الرسالة الأخيرة الذي ختم به الأنبياء بصفات تشير اشارة بليغة الى خلود رسالته ، وكونه قدوة صالحة ، وأسوة حسنة ، في كل عصر وجيل ، ولكل طبقة من الناس ، من غير تقييد بزمان أو مكان فقال : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا « (١) ، وقال : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (٢) وقال : « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا ومنيرا » (٣) .

وليس من عادة العقلاء ، والأدباء البلغاء - فضلا عن العليم الحبير ، علام الغيوب - أن يسبغوا على ملك راحل وسلطان زائل نعوتا وألقابا لا تليق الا بمن استقر حكمه ، واستتب أمره ، وليس من عادة الحكماء الذين ينظرون في عواقب الأمور ، ويزنون الكلام وزنا دقيقا أن يبالغوا في التهنتة على مولود عرفوا أن حياته قصيرة وأنفاسه معدودة (٤) .

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٢) سورة آل عمران : ٣١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٤٦ .

(٤) لذلك أنكر شيخ الاسلام ابن تيمية أن يكون اسحاق هو الذي أمر أبوه ابراهيم بذبحه ، فان ذلك يتنافى مع حكمة الله تعالى في التبشير ببقاء ذريته . وقد قال كما نقله تلميذه ابن قيم : « وكيف يسوغ أن يقال ان الذبيح اسحاق ، والله تعالى قد بشر أم اسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال الله تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لابراهيم لما أتوه بالبشرى : « لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ، وامراته قائمة ، فضحك فبشرناها باسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب » فحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ، ثم يأمره بذبحه » (زاد المعاد ج ١ ص ١٦) .

القوة الدائمة للأجيال البشرية كلها ، وكيف أمكن ذلك ؟

ولما كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة لطبقات الناس جميعا ، وللأجيال البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، اتجهت عناية الله الى حفظ أخباره وآثاره ، وصفاته وأخلاقه وعاداته ، وتصرفاته ، وصرف الله قلوب المسلمين الى تتبع كل ما يصدر عنه من حركة وسكون ، وأخذ ورد ، وعادة وعبادة ، وألهمهم الاعتناء به اعتناء لا مزيد عليه ، كان سائقا يسوقهم الى ذلك .

وقد تجلت هذه العناية الالهية بكل وضوح فى الحديث والسيرة ، وفى كتب السمائل ، وفيما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته ، فى صفته التى لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفة أكثر منها دقة ، وأعظم منها استيعابا للملامح البشرية ، والدقائق الخلقية ، ولنظرة عابرة فى شمائل الامام أبى عيسى الترمذى (٢٠٩ / ٢٧٩ هـ) - على سبيل المثال - تكفى للإيمان بأن هذا الاهتمام البليغ الحارق للعادة بتسجيل دقائق الخلق والخلق ، والعادات والعبادات ، والأقوال والأفعال وكل ما يتصل بهذه الشخصية الكريمة اتصالا يتصوره الذهن الانسانى ، وفى بسط وتفصيل ، لا نظير لهما فى سير الأنبياء ، ولا فى تاريخ العظماء (١) لم يكن مجرد مصادفة ، ولا وليد الاتجاه الشخصى ،

(١) وقد عنى علماء الأئمة الاسلامية بجمع التفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية ، والتراتب الادارية ، والحرف والصنائع والمتاجر والمناصب وأنواع العلوم والمشخصات التى كانت على عهد تأسيس المدينة الاسلامية النبوية عناية لا مثيل لها فى أمم السابقين وحسب القارىء أن يقرأ كتاب « التخرىج » لأبى الحسن على الخرازى التلمسانى (٧١٠ - ٧٨٩ هـ) وتهذيبه وتكميله للعلامة الشيخ عبد المحى الكتاني الذى أسماه « التراتيب الادارية » وهو موسوعة فى كل ما تهم معرفته عن عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والحياة فيه .

والعمل الفردى ، وكذلك من تصفح كتاب « الأدب المفرد » للامام
أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (٢٥٦/١٩٤ هـ) الذى
خصه مؤلفه العظيم ، بما ورد فى الآداب الاسلاميه ، ومكارم
الأخلاق ، وحسن العشرة والاجتماع ، وحقوق الصحبة ، وتهذيب
النفس ، وأدب الحياة ، معتمدا فى كل ذلك على ما صح عن الرسول
صلى الله عليه وآله وسلم ، ونقل عنه ، علم علم اليقين أنها لم تكن
فلتة من فلتات الدهر ، انما هو تقدير العزيز العليم ليتحقق العمل
فى كل عصر وجيل ، بقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله
أسوة حسنة » وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم
الله » ، ولثلا يكون لمتعلل بانقراض الآثار ، وانقطاع الأخبار عذر
فى ترك الائتساء والاقْتداء كما هو الشأن فى قضية الأنبياء انذين
لم يبق لبعضهم الا الاسم ، أو أخبار مبتورة لا تكفى للاقتداء
والاقتفاء .

أما الحديث النبوى فيصح أن يسمى « سجل الوقائع اليومية »
وشبهه مذكرات - اذا صح هذا التعبير - لمدة ثلاث وعشرين سنة
قضاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بعد ما أكرمه الله بالنبوة -
على ظهر الارض ، ترينا كيف كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
يعيش فى هذه الحياة ، كيف كان يقضى نهاره وليله ، ونعرف عنه
من دقائق الأخلاق والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمل
ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التى عاشت قريبا ، بل عن
الشخصيات المعاصرة أحيانا ، وهو مجموع صور ناطقة يتعرف بها
الانسان بنبيه ، ويسعد بصحبته ، ويتبرك بأنفاسه ، وكأنه حضر
مجلسه ، واستمع لحديثه ، وعاش معه ، وكان ذلك أبعث على
الاقْتداء ، وأبعد عن مضار الوثنية ، وعبادة التماثيل مما جرت عليه
الأمم القديمة ، من تصوير أنبيائها ونحت تماثيلهم .

وحسب القارىء أن يقرأ قصة حجة الوداع فى كتب الحديث ،

فقد سجل الرواة فيها كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها التي لا تسترعى الانتباه ، وليست لها قيمة تاريخية كبيرة ، ولا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء (١) .

وبفضل هذه الثروة الحديشية استطاع المؤلفون الحاذقون في مختلف العصور والبقاع أن يؤلفوا للمسلمين كتباً تكون دستوراً كاملاً لحياتهم ، حتى إذا أراد المسلم - مهما كانت مهنته وطبقته - ألا يخطو خطوة ولا يبيت في أمر ، ولا يمارس نشاطه الا في ضوء الهدى النبوي صلى الله عليه وسلم أمكنه ذلك ، والكتب التي ألفت في هذا الموضوع كثيرة ، وفي أكثر لغات العالم الاسلامي وهي بين بسيط ووسيط ووجيز ، أحسنها « زاد المعاد » (٢) في هدى خير العباد « للعلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الملك المشهور بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) أنبغ تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ، وأحد أعلام الأمة .

ويتجلى هذا السر الالهى في وضوح هذه السيرة وخلودها وكونها بمتناول المؤتسرين والمقتدين ، اذا قارن الانسان بين هذه السيرة وبين سير الأنبياء السابقين وحياتهم ، فأكثرها توارت في

(١) اقرأ في كتب الصحاح تفاصيل تطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عند الاحرام واشعاره لهديه واحتجامة وتحديد مكانه من الجسم وموضعه من الطريق وتحديد المنازل بين المدينة ومكة ولم يفتر الراوى أن يقيد خروج حبة ليلة منى وافلاتها من القتل وأسماء من كان « رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة بل من أرفدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته كلها .

(٢) قد صدرت للكتاب عدة طبعات في مصر والهند . وأمامنا طبع المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٤ هـ وقد تم الكتاب في مجلدين ضخمين وفي ٩٢٦ صفحة بالقطع الكبير والحرف الدقيق . والكتاب مكتبة في السيرة والحديث والفقه ، وقد تلقاه علماء كل عصر بالقبول .

ظلمات الجهل والاهمال ، والحوادث التاريخية الدامية ، وقد أدت رسالتها في فترة زمنية خاصة ، ومشى في ضوئها الجيل الذي كلف اتباعهم ، ثم لم تبق حاجة الى الاحتفاظ بها ، والى أن نتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتنتسب اليه أمة عرف شغفها بالعلم والتأليف ، وافراطها في حب نبيها ، واطراؤها له اطراءا بلغ حد التأليه والتقديس ، ولكنها لم تستطع أن تعرض على العالم الا نتفا من أخباره وأقواله التي لا تكون هيكلًا من حياة بشرية كاملة ، يقلده الانسان في حياته الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمع فاضل ، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحي قبل أيام أن « العهد الجديد » يتضمن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير الى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوما من حياته ، لا أكثر ولا أقل (١) .

أما الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة ، فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة في ركام الماضي ، وهنالك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ، ولا يتسنى بدونها الاقتداء والتقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء اليها في هذا العصر المتأخر (٢) ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الالهية

(١) يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات في مقال له في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ج ١٣ ، ص ١٧١٠ « ينبغي أن يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب في سيرة المسيح ، بكل صراحة ، فانه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوما .

(٢) اقرأ للتفصيل الكتاب القيم « الرسالة المحمدية » للعلامة السيد سليمان الندوي المحاضرة الثانية والثالثة والرابعة .

ومنطق الأشياء ، فالمثل الانسانية لها أعمار طبيعية ، وحيوية محدودة ، فاذا انتهت لم تكن مصلحة في تناقلها ، أما ما كانت الحاجة اليه قائمة دائمة فبقى على اختلاف الزمان والمكان ، واستمر وانتشر ، وأورق وأثمر .

صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما يتصل به :

ومن قرأ ما ورد من الآداب والأحكام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سورة الأحزاب ، وفي سورة الحجرات ، وفي سورة التحريم ، وفي سورة المجادلة ، وما ورد من تكريم الله تعالى له ونعمه عليه ، في سورة الفتح ، وسورة الضحى ، والانشراح ، عرف بدلالة العقل وسلامة الذوق أنها نعت نبي قد بعث للأجيال كلها ، وللعصور كلها ، وأن شمس رسالته لا تقبل الكسوف وأن نجمه لا يقبل الأفول ، ولا شك أن بعثة نبي ولو لم يأت بشريعة جديدة ، تتنافى مع الحكمة الالهية في هذا الشئ العاطر ، والوصف البالغ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وربط الأمة ربطاً وثيقاً دائماً بهذا النبي الكريم ، وتعاليمه وأسوته ، وأصحابه وأهل بيته ، والأرض التي ولد فيها ونشأ ، ودعا فيها الناس الى الله وشعائر الله فيها ، ولا شك أن النبي الذي يبعث بعده ، أو يدعى النبوة ، يحول بين الأمة ونبيها الأول أراد ذلك أو لم يرد ، ويضعف صلتها به (صلى الله عليه وآله وسلم) شعر بذلك أو لم يشعر ، وتلك طبيعة الأشياء ، وخاصة الفطرة البشرية ، وقد أثرت عقيدة الامامة عند الشيعة الامامية في صلة هذه الطائفة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فتحول تيار الحب والعاطفة ، والحماس والاندفاع الى الأئمة الاثنى عشر - رحمهم الله تعالى - وتجلى ذلك في مجال التأليف والتصنيف والأدب والشعر ، وشد الرجال الى المشاهد والهيام بها ، وأصبح الولاء للأئمة ، والحب لعلي بن أبي طالب ، وابنه الحسين - رضى الله

تعالى عنهما - هو شعار هذه الطائفة ودثارها ، قد ملأ كل فراغ في العقيدة والعاطفة والحماس ، فما ظن العاقل بنبي يبعث في هذه الأمة أو غيرها ، في عصر من العصور ، ألا ينافس السواء له ، والانضواء الى رايته ، حب الأمة لنيبها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل ما يتصل به ويعزى اليه من تعاليم ، وسنن وهدى ، وأصحاب ولغة وآداب ، وتاريخ وحضارة ، انه ناموس من نواميس الفطرة التي لا تتغير .

وذلك عكس ما فهم من الدين بالضرورة ، ودل عليه القرآن ونطقت به السنة المتواترة ، فقد جاء في الحديث الصحيح ، « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » (١) ويقول القرآن : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » (٢) .

وصف القرآن للرسالة المحمدية وما يقتضى ذلك :

ومن هذه الأساليب القرآنية ، ما جاء في وصف الرسالة التي حملها الرسول صلى الله عليه وسلم الى الخلق أجمعين ، والشريعة التي جاء بها ، فهو من أكبر الأساليب والدواعي لهذا الاعلان الصارخ ، المبرر بل الموجب لانتهاة سلسلة النبوءات والرسالات السماوية على محمد صلى الله عليه وسلم ، فصرح القرآن بنسان عربي مبين ، لا غموض فيه ولا لغز ، بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال ، والوفاء بحاجات البشر ، والصلاحية للبقاء

(١) رواه الشيخان والنسائي . وفي بعض الروايات « من نفسه » . (الطبراني

في معجبه الكبير والوسط) .

(٢) سورة الاحزاب : ٦ .

والاستمرار ، فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١) .

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، ولم ينزل بعدها - كما تقول أكثر الآثار - حلال ولا حرام ، ولم يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا اليوم الا احدى وثمانين ليلة ، وقد فهم كبار الصحابة الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين ، ومقاصد التشريع ، وأقرب الناس الى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأعظم الناس حباله ، وحرصاً على بقاءه ، كان في مقدمتهم أبو بكر وعمر ، دنوا ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحوقه بالرفيق الأعلى ، فقد بلغ رسالة الله ، وكمل الدين ، وتمت نعمة الله على عباده ، فمنهم من بكى ، ومنهم من تنبأ بدنوا هذه الساعة (٢) ، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات ، أنها كرامة خص بها المسلمون ، ومفخرة لهذا الدين ، لا يشاركه فيها دين آخر ، ورأوا أن اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية جدير بأن يخلد ، ويحتفل به على مر العصور ، ويبدى فيه المسلمون سرورهم وامتنانهم (٣) .

وهكذا فهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي نزلت عليه هذه الآية ، فقال في خطبته يوم حجة الوداع ، ينصت اليها أكثر من مائة ألف انسان ويحفظونها « أيها الناس ! انه لا نبي بعدي ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ،

(١) المائة : ٣ .

(٢) راجع كتب الحديث والسيرة وكتب التفسير .

(٣) راجع صحيح البخارى : كتاب التفسير . والصحيح لمسلم وجامع الترمذى

وسنن النسائى ومسند أحمد . وراجع تفسير ابن كثير .

وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم ، وأطيعوا
ولاة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم» (١) .

وكذلك صرح القرآن بأن هذا الدين قد قدر له البقاء ، والغلبة
والانتشار ، وأنه سيبلى ذروة المجد والعز ، وتعلو كلمته ، ويمتد
ضوءه ، ويتبين صدقه ، فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى
ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » (٢) .
وقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على
الدين كله ، ولو كره المشركون » (٣) ، وقال : « يريدون ليطفئوا
نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٤) ، وكل
هذه الكفالات ، والضمانات ، والنبوءات ، والاعلانات تدل بدلالة
النص وإشارته على أن هذا الدين هو رسالة الله الأخيرة ، وحاجة
البشرية كلها ، على اختلاف العصور والأمصار ، وأن الله هو بالغ
أمره فيه ، كره الناس ذلك أو أحبوه ، وسأله الحساد والمعارضون
أو حاربوه ، وكل ما كان ذلك شأنه ، ووردت فيه هذه الأخبار
الصادقة ، والتحديات البالغة فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ، لا يقبل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير ، أو
يحتاج الى نبي جديد ، ورسول مبعوث .

عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات ، واستغنائها عن تطوير وتعديل :

وكانت الديانات السابقة ، والرسالات القديمة ، بعضها

(١) أخرجه ابن جرير فى « تهذيب الآثار » وأخرجه ابن عساکر .

(« كنز المال » ج ٥ ص ٢٩٥ طبعة حلب) .

(٢) سورة الفتح : ٨ .

(٣) سورة الصف : ٩ ، وسورة التوبة : ٣٣ .

(٤) سورة الصف : ٨ .

محدودة في شعب ، أو مختصة باقليم ، أو خاصة بفترة زمنية ، قصيرة أو طويلة (١) ، ولم تكن الديانة اليهودية في زمن من الأزمان دعوة عامة للخلق ، ولم يكلف اليهود - في ضوء من نصوص كتبهم المقدسة - تبليغ الرسالة الى الأمم جميعا ، بل وردت نصوص تمنع عن ذلك ، وتحصر نشاطهم الدعوى في نطاقهم العنصرى المحدود (٢) ، وكان من الطبيعى والمعقول جدا أن يميزوا دائما بين بنى اسرائيل وبين الشعوب والقبائل الأخرى ، وأن يضعوا المخير والشر ، والبر والاثم ، مقاييس مختلفة ، تختلف باختلاف السلالات والشعوب .

تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة Margaret Mareus اليهودية سابقا ، في كتابها « الاسلام ازاء أهل الكتاب ماضيا وحاضرا » باللغة الانجليزية : « ليس أن اليهود لا يبلغون دينهم الى غيرهم عمليا ، بل انهم لا يرحبون بالدخول في ديانتهم ، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عدد كبير ، كان ذلك مرة في اليمن ، في زمن سبق البعثة المحمدية ببضعة قرون ، ومرة ثانية لما اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التاتارية الأصل ، التي عاشت مدة قصيرة في روسيا » (٣) .

ويدل على ذلك دلالة واضحة الأسلوب الذى ألف فيه « العهد

(١) وقد وردت في « العهد القديم » نصوص وتصريحات بأن رسالات أنبياء بنى اسرائيل كانت مؤقتة ومختصة بزمان خاص ، اقرأ على سبيل المثال (١٨ : ١٥) و (١٨ : ١٨) و (٣٣ : ١ - ٢) من سفر التثنية في التوراة ونبوة أشعيا الأصحاح ٤٠ وسائر أسفار بنى اسرائيل والزبور والاناجيل مملوءة بمثل هذه النصوص .

(٢) راجع كتاب الخروج باب ٣ وكتاب الاستثناء باب ٣٢ - ٤ .

(٣) Islam versus ahlalkitab Past and Present (22-23)

القديم ، الموجود في أيدينا اليوم ، والروح التي تسيطر على كل سطر منه ، فيشعر القارئ لهذا الكتاب بأنه يطالع ملحمة اليهود ، أو كتاب مناقب اليهود ، أو كتاب الأنساب الخاص بهم ، ولا يجد فيه من تعليمات خلقية وروحية ، ومن حث على مكارم الأخلاق العامة والمساواة بين البشر ، والاعتراف بكرامة الانسان ، وحث على الزهد ، وتهذيب النفس ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، واللهج يذكر الجنة ونعيمها ، والتخويف من النار وعذابها ، ما يهذب النفس ويرقق القلب ، ويشعره بكرامته ومسئوليته اذا كان ينتمى إلى سلالة غير اسرائيلية ، فالكتاب بقصصه وأخباره وأحكامه ، يدور حول اليهود الذين يعتبرهم دينهم وكتابهم « شعب الله المختار » .

وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصة لبني اسرائيل ، وقد صرح بأنه لم يبعث الا ليرعى خراف بني اسرائيل الضالين (١) واقتصرت رسالته على قراهم وأرضهم ، والمنسولين اليهم ، ولما لم تفتح نظره الى من لم يتصل ببني اسرائيل بنسب أو بقراة فاستعطف عليه ، قال : انى لست ذلك الرجل الذى يعطى خبز الأولاد للكلاب (٢) .

أما أمر الديانات الشرقية الآسيوية ، كالبرهمية الهندية وما شاكلها فأمرها أدهى وأمر ، وكانت تعتبر في غالب الأحيان غير الآريين وغير البراهمة أنجاسا مناكيد ، وتساوى بينهم وبين الدواب ، وتعاملهم أحيانا معاملة الكلاب (٣)

تمهيداً على

رأسنا

- (١) راجع انجيل متى باب ١٥ آية ٢٤ وباب ١٠ آية ٦ و٧ .
 (٢) متى باب ١٥ آية ٢٦ .
 (٣) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الباب الأول : الفصل الأول عنوان نظام الطبقات الجائر ص ٥٨ . وأمثلة الطبقة البراهمة ص ٥٩ والمنبوذون الأشقياء ص ٦٠ .

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده تقتضيان بعثة نبي جديد ،
يحمل تعاليم جديدة ، وتعديلات في الشرائع والأحكام ، اقتضاها
تغير الزمان والمكان ، والأحوال والظروف ، واقتضاها بعض
الحوادث ، فتتناول التسهيل أحيانا وتحليل ما حرمه المتدينون
الغلاة ، أو تحريم ما أحله المتوسعون المتنعمون ، أو السلاطين
المترفون ، فيقول سيدنا عيسى بن مريم « ومصدقا لما بين يدي
من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من
ربكم فاتقوا الله وأطيعون » (١) .

وقد أعلن القرآن انتهاء هذين الموجبين لنبوة جديدة ، أما ما
يتصل بعموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب ، وطبقات الناس
جميعا ، فقال : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ،
الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو ، يحيى ويميت » (٢)
وقال : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر
الناس لا يعلمون » (٣) . وقال : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٤)
وقال : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين
نذيرا » (٥) ، وقال : « ان هو الا ذكر للعالمين » (٦) .

فالدين الاسلامى حق مشاع ، وثروة مشتركة لجميع الأمم
والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد
والأوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار بنى لاوى من اليهود ،
أو البراهمة من الهنود ، لا يتميز فيه شعب عن شعب ، ولا نسل
عن نسل ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم ، بل الاعتماد فيه
على الحرص والشوق ، وحسن التلقى ، وزيادة التقدير ، والتفوق

(٢) الأعراف : ١٥٨ .
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٦) سورة ص : ٨٧ .

(١) النساء : ٥٠ .
(٣) سبأ : ٢٨ .
(٥) سورة الفرقان : ١ .

في الجهاد والاجتهاد ، والدين والتقوى ، وقد قال الله تعالى :
 « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
 لتعارفوا • ان أكرمكم عند الله أتقاكم • ان الله عليم خبير » (١) ،
 وأعلن النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « الناس بنو آدم
 وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » (٢) •
 وروى الامام أحمد بن حنبل (٣) بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قال : « لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء
 فارس » (٤) •

وأما ما يتصل بالحاجة الى التغيير والتسهيل ، فصرح بأن هذه
 الشريعة قد جاءت سهلة سمحة ، توافق الفطرة المستقيمة والعقول
 السليمة ، في كل زمان ، فقال : « يريد الله بكم اليسر ، ولا
 يريد بكم العسر » (٥) ، وقال : « ما جعل عليكم في الدين من
 حرج » (٦) •

ان التشريعات المجحفة ، والقيود المرهقة - من تحريم ما أحل
 الله ، وتضييق ما وسع الله فيه - التي أخذت بها الأمم السابقة
 نفسها ، والتزمت ما لم يلزمها الله به ، كانت كدرت عليها صفو
 الحياة ، وعقدت الدين ، وجعلته عبئا ثقيلا لا يطاق حمله ، وجاءت
 النبوة الأخيرة ، والشريعة السمحة الحنيفة ، فأزالت هذه القيود

(١) الحجرات : ١٣ •

(٢) رواه الترمذى وغيره •

(٣) مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٩٦ •

(٤) قد بسط شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية في كتابه النفيس « الجسواب
 الصحيح لمن بدل دين المسيح » دلائل عموم البعثة المحمدية من القرآن والحديث
 والآثار والأخبار (الجزء الأول ص ١٢٦ - ١٤٠ وص ١٦١ - ١٦٦) فليراجع •

(٦) الحج : ٧٨ •

(٥) البقرة : ١٨٥ •

والأغلال التي كانت من اختراع العباد الغلاة ، والمشرعين القساة ،
وأعدت الأمور الى نصابها ، يقول القرآن في وصف هذا النبي
الذي ختم الله به الأنبياء ، وأرسله الى الناس كافة بشيرا
ونذيرا .

« يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ويحل لهم الطيبات
ويحرم عليهم الحبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت
عليهم » (١) .

وذكر أن كبار العقلاء والمشرعين لو حاولوا مراعاة الحاجة
البشرية ، والأحوال المختلفة ، لم يبلغوا حيث بلغ علم الله المحكم ،
فقال في آيات المواريث : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب
لكم نفعا ، فريضة من الله ، ان الله كان عليما حكيما » (٢) . ويقول
في سياق آيات الزواج وما للزوجين من حقوق وفرائض : « يريد
الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ،
والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون
الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق
الانسان ضعيفا » (٣) .

الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ :

وما زالت الصحف السماوية السابقة للقرآن عرضة للتحريف
والتبديل ، والضياح والتلف ، فان الله سبحانه وتعالى لم يتكفل
بحفظها وبقائها ، بل أسند ذلك الى علمائها وحملتها ، ولم تحتج
اليها البشرية ، أو الأمم التي خوطبت بها ، الا لفترة من الزمان ،

(٢) النساء : ١١ .

(١) الاعراف : ١٥٧ .

(٣) النساء : ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ .

فقال : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين
أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من
كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء » (١) .

وقد ثبت ذلك تاريخيا وتواتر وأقرت به الأمم والطوائف ،
التي نزلت فيها هذه الصحف .

وقد استهدفت صحف العهد القديم للتلف والاحراق والابادة ،
بصورة واضحة ، وباتفاق المؤرخين اليهود ثلاث مرات في
التاريخ .

المرة الأولى حين زحف بختنصر (Nabuchodonosor)
(٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) ملك بابل على اليهود سنة ٥٨٦ ق.م .
وأشعل النيران في بيت المقدس الذي حفظ فيه النبي سليمان عليه
السلام ألواح التوراة ، وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأخذ
من سلم من القتل من اليهود أسيرا الى بابل حيث مكثوا فيه خمسين
سنة ، وقد أعاد « عزرا » الصحف الخمس الأولى التي تسمى
« تورة » بحفظه ، وقيد الحوادث في أسلوب تاريخي ، ثم ضم إليها
نحميا السلسلة الثانية من الكتب ، مضيفا إليها زبور داؤد .

والمرة الثانية حين كر انطيوخوس (Antiochus) الرابع
الملقب أبيقانس ، ملك أنطاكية اليوناني على بيت المقدس (سنة ١٦٨
ق.م) وأحرق الصحف المقدسة ، ومنع من تلاوة التوراة ،
وممارسة الشعائر اليهودية رسميا ، ونشط يهودا المكابي في جمع
الصحف المقدسة وترتيبها ، وضم إليها السلسلة الثالثة من صحف
« العهد القديم » .

والمرة الثالثة حين هجم تيطس (Titus) الامبراطور الروماني
(٤٠ - ٨١) على بيت المقدس في ٧ من سبتمبر سنة ٧٠ م ، ودمره .

(١) المساندة : ٤٤ .

بما فيه من هيكل سليمان وحوله الى أنقاض وخرائب ، واستولى على الصحف المقدسة ، ونقلها الى بلاطه فى روما تذكارا للفتح ، وأجلى اليهود عن القدس ، واستعمر غيرهم حول المدينة(١) .

ومقاييس حفظ الصحف المنسوبة الى الأنبياء المستفادة من الوحي ، وبقائها على أصالتها ، ونصوصها ، ووجهة نظر أصحابها اليها ، تختلف عن مقاييس المسلمين ، وعقيدتهم عن الكتاب المنزل من الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، اختلافاً كبيراً ، فلا يمنع دخول بعض زيادات وتعديلات فى هذه الكتب عن اضافتها الى الوحي ، وتسميتها بالصحف السماوية عند اليهود، وقد لا يتخرجون من اضافة تأليفها الى الأنبياء ، فقد جاء فى مختصر دائرة المعارف اليهودية ما يلى :

« ان الأخبار اليهودية وان كانت تلح على أن صحف العهد القديم من تأليف « الأبطال » ، أو الشخصيات التى تتحدث عنها هذه الصحف ، وذلك لا يبعد عن الصواب ، ولكنهم لا يتخرجون فى الاقرار بأن بعض هذه الصحف تناولها التعديل والزيادة فى العهد المتأخرة »(٢) .

وجاء فى دائرة المعارف اليهودية ما معناه :

« ان الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة ، من تأليف النبي موسى ، باستثناء ثماني آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى ، وما زال الربيون يعنون بتناقضات واختلافات وردت فى هذه الصحف ،

(١) راجع كتب تاريخ الصحف المقدسة . وراجع دائرة المعارف اليهودية .

وقد وردت اشارات الى هذه الحوادث فى صحيفة نحميا مكابن وغيرها .

Vellentin's one volume Jewish Encyclopaedia (٢)

London p. 93.

وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم « (١) .

وتزيد هذه الموسوعة الكبيرة : « ان اسفينوزا (Spinoza) يقول : « ان الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم ليست من تأليف موسى ، بل هي من تأليف عزراء (٢) ، وان آخر ما وصل اليه البحث العلمى ، هو أن هذه الكتب (الخمسة الأولى) ترجع الى ثمانية وعشرين (٢٨) مصدرا استقيت واستفيدت منها هذه الكتب « (٣) .

أما صحف الديانات الأخرى التى تعتبر أعرق فى القدم ، وفيها صحف الهند العتيقة التى تدين بها الشعوب الهندية الآية وتعتقد أنها نزلت من السماء ، وأنها من كلام فاطر الكون ووحيه ، فقد أحاطت بها حالات من الظلام والغموض ، والجهل والأساطير ، وجهلت العهود التى نزلت فيها والأشخاص الذين خوطبوا بها ، ودخل فى صلبها الشيء الكثير من الزيادات ، والتفسيرات واندرست اللغات واللهجات التى نزلت بها ، حتى أصبح الجزم بتحديد عهدها ، والوصول الى حقيقتها ، ومقاصدها ، والتمييز بين أصولها وشروحها ، شبه المستحيل ، يقول أحد كبار العلماء المختصين فى تاريخ هذه الصحف ، وهو الموسيو A. Parth عضو المجمع الآسيوى الملكى فى باريس (The Société-Asiatique of Paris) وهو يتكلم عن « ويدا » فى كتابه « ديانات الهند » :

Jewish Encyclopaedia V. 9 p. 589.

(١)

(٢) ص ٩٥٠ ملقط من تفسير مولانا عبد الماجد الدرايادى بالانجليزية .

(٣) نفس المصدر ص ٥٩٠ .

« ان هذه الصحف لا تدعى أنها من الله ، ولا تحاول أن تخفى - بطريقة صناعية - عمرها ، لقد دخل الشيء الكثير من الزيادات والتحريفات في صلب هذه الكتب وصميمها ، وقد كان الدافع الى ذلك الاخلاص وحسن النية (١) ولكن رغم ذلك من الصعب تحديد عمرها ، أو تقديره على الأقل ، ان أجزاء « برهمن » (Brahmana) التي كتبت في آخر ما كتب ، لا تتقدم بداية عهدنا الا خمسمائة سنة ، أما بقية ما اشتملت عليه « ويدا » فهي موغلة في قدم يصعب معه الجزم بشيء ، أما ما كان أعرق منه في القدم فمن المستحيل ابداء الرأي فيه » (٢) .

أما « أوستا » صحيفة المجوس الفرس ، فلا يختلف شأنها عن شأن « ويدا » ، ولعل نصيبها من البحث العلى ، والقيمة التاريخية أقل ، والشبهات حولها أقوى ، يقول (Robert H. Pfeiffer) رئيس فرع اللغات السامية في جامعة هارورد ، في دائرة معارف الديانات ، وهو يتحدث عن « أوستا » :

« ان أصل « أوستا » كما تقول الحكايات كان جامعاً للعلوم ، وقد أباد معظمه الاسكندر ، وقد ألف كتاب في القرن الثالث المسيحي مما تبقى من الكتاب كان يحتوى على ٢١ جزءاً تسمى (Nask) ولم يبق من هذه الأجزاء كلها الا جزء واحد يسمى (Vendidad) وقد نقل جزء يتصل بالعبادات من هذا الكتاب الى الهند بعد القرن التاسع المسيحي ، وهو يتألف من خمسة أجزاء

(١) لعله يعنى أن الذين فعلوا ذلك كان غرضهم أن يقبل عليها الناس قراءة ومطالعة وأن يطبقوا بينها وبين روح العصر وثقافته ، وهذا نفس ما وقع مع العهد القديم والجديد . وقد جنى ذلك على هذه الصحف جناية كبيرة ، فقد ثبت بطلان النظريات والشائعات علمياً ، ففقدت « الكتب المقدسة » قيمتها ومكانتها .

تسمى : (Yasna) بما فيها (Gatha) (Vespered) (Vendid) (Khorda Avasta) (١) .

أما القرآن الكريم الذي كان آخر الكتب المنزلة من الله ، ومصداقاً لها ، ومهيماً عليها ، وعليه الاعتماد في هداية البشر ، وربط الخلق بالخالق ، والدعوة الى الله بعد البعثة المحمدية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فشأنه يختلف عن شأن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف ، فقد تكفل الله بحفظه وسلامته من كل تحريف وتبديل ، وزيادة ونقص ، فقال : « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) وكذلك تكفل الله بسلامته من مسخ وعبث ، ومحو من الذاكرة ، وارتفاع عن صدور الناس ، أو تعرض لنكبة تقضى عليه أو تبديه ، كما وقع أكثر من مرة للتوراة ، فقال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٣) وهي الكفالة بحفظه وبقائه ، وانتشاره وازدهاره وبقائه ، متلوا ومدروسا ومفهوما ، وغير مهجور قد انقطع العمل به بتاتا ، أو تنوسى ، فكل هذا - من معان ولوازم وآفاق - مما تنطوى عليه كلمة « الحفظ » العربية البليغة .

ولما قضى الله ببقاء هذا الكتاب على أصالته ونقائه ، وببصه وفصه ، كما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سخر الله لهذا الغرض النفوس البشرية ، والدواعى الطبيعية ، والأسباب الخارجية ، والحوادث الكونية ، فكان لا يتحرك به لسان النبوة ، ولا يدخل في الأذن الا ويتهالك المسلمون على تلقفه وحفظه ،

(١) دائرة معارف الديانات طبع نيويورك ١٩٤٥ م ص ٩٤ .

(٢) حم السجدة : ٤١ - ٤٢ .

(٣) الحجر : ٩ .

وتلاوته وتدارسه ، بدافع من الحب الذي جبلت عليه القلوب ، ولاعجازه وبلاغته ، ورينيه ، وحلاوة جرسه ، ثم بما وردت في فضل حفظته وحملته من الآيات الكثيرة ، والأحاديث المستفيضة المتواترة (١) ، وقد قرنت حياة المسلمين به صلاة وتعبدا ، وأحكاما ومدنية واجتماعا ، وعلما وأدبا ، فبلغ تعلق قلوب المسلمين به الى حد الغرام والهيام ، وكثر عدد حفاظه فيهم من أقدم العصور ، فقد استشهد في وقعة بئر معونة التي كانت سنة ثلاث للهجرة سبعون رجلا من المسلمين يقال لهم القراء (٢) ، وهكذا لم يزل عدد الحفاظ يتزايد بتزايد عدد المسلمين ، وكثرة الدواعي الى الحفظ وتنوعها ، حتى وصل الى حد يقضى منه العجب ، في مدينة صغيرة ، وفي كل مجتمع اسلامي ، ويتناقله المسلمون صدرا من صدر ، ولسانا من لسان ، ويبلغ منهم الاتقان لحفظه ، والدقة في صحته ، والبراعة في استحضاره ، والتنافس فيه ، والشغف بقراءته والتعبد به الى حد لا يصدق من غير المسلمين الا من عاشر المسلمين وعاش معهم ، وعرف عوائدهم ، وكان عدد هؤلاء الحفاظ يفوق الاحصاء في كل زمان ، فضلا عن هذا الزمان الذي لا يقل عددهم عن ملايين .

وقد ألهم الله خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحق ، والقائمين بأمر المسلمين حين استحر القتل يوم اليمامة بالقراء ، فخشوا أن يكون في استشهاد القراء في المواطن الأخرى ضرر على بقاء القرآن ، ان كان جل الاعتماد على الحفظ ، وقد بدا ذلك لعمر الذي كان يسبق زملاءه الصحابة في التعرف لحاجات المسلمين ومصالحهم ، وكان يتوارد خاطره بمقاصد التشريع ، فاقترح على

(١) راجع على سبيل المثال : رسالة « فضائل القرآن » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى . تعريب الأستاذ واضح رشيد الندوى .
(٢) راجع البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٧١ . وحديث بئر معونة حديث مشهور رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

أبى بكر وهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ وخليفة المسلمين ، جمع القرآن وكتابه ، وكان مفرقا في الرقاع والعسب ، واللخاف (١) ، وصدور الرجال ، وشرح الله صدر أبى بكر لهذا الأمر ، وكلف زيد بن ثابت لاختصاصه بهذا الشأن ، فقام بذلك خير قيام ، معتمدا على المحفوظ في صدور القراء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف محفوظة يرجع اليها ، ويعتمد عليها ، حتى آل الأمر الى عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وقد اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وتفرق القراء في الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر عن من وفد اليهم قراءته ، وخشى على المسلمين الاختلاف والاضطراب في وجوه القراءة ، واللحن بدخول العجم في الاسلام في عدد كبير ، وخاف عقلاء الصحابة أن ينشأ عنه التحريف والتبديل ، فأمر عثمان رضى الله تعالى عنه بنسخ الصحف الأولى ، التى نسخت في عهد أبى بكر فى المصاحف ، وكتبت على القراءات المتواترة ، وبعث عثمان الى كل أقب بنسخة من المصاحف واحتبس بالمدينة واحدا ، هو مصحفه الذى يسمى « الامام » (٢) وهذه المصاحف هى التى تمسك بها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وعليه درجت أجيالهم ، وبها ذلت ألسنتهم ، وحفظوا القرآن ، وعبدوا الله به ، وعليه الاعتماد فى العالم الاسلامى كله من أقصاه الى أقصاه ، ومن السنة الخامسة والعشرين التى كان فيها هذا الجمع الأخير الى يوم الناس هذا ، لا يشذ عنه شاذ ، ولا يوجد عنه اختلاف

- (١) العسب جمع عسيب أى جريدة من النخل وهى السعفة مما لا ينبت عليه الخوص . واللخاف جمع لخفة : حجارة بيض دقاق .
- (٢) اقرأ تاريخ جمع القرآن وكتابه فى الكتب التى ألغت فى هذا الموضوع قديما وحديثا . وقرأ خلاصتها فى كتاب « مباحث فى علوم القرآن » لصديقنا الفاضل الأستاذ مناع القطان . وقرأ الكتاب الممتع المفيد « النبأ العظيم » لمؤلفه الفاضل العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز .

بعد ما كانت قضية مسلمة بديهية ، وقد كان المؤلف يشعر
بمسئوليته فى هذا المجال العلمى ويشعر برغبة قوية فى الاسهام
فى هذا الموضوع مع كثرة ما كتب فيه فى أوائل هذا القرن
ومنتصفه .

وقد كان من الممكن أن يتأجل ذلك لوقت آخر ولكن القضية
دخلت فى الزمن الأخير فى المرحلة الحاسمة التى لا تحتمل تأجيلا ،
وأصدرت أكبر مملكة اسلامية حكما فى هذه القضية (١) ذات
الصلة العميقة الوثيقة بمصير الاسلام والمسلمين ، ومستقبل هذا
الدين ، وان كانت القضية قد انتهت على الصعيد الحكومى والادارى
فانها فى حاجة الى أن تنتهى على الصعيد العلمى والفكرى ، وليس
هذا البحث الذى يراه القارئ الا محاولة لتحقيق هذا الغرض
ومساهمة من جندى صغير فى جهاد كبير .

ونشر هذا الفصل مفردا لتعم الفائدة ، ونسأل الله أن ينفع
به الاسلام والمسلمين ويزيدهم ايمانا الى ايمان ويقينا الى يقين
ويداوى بها القلوب المريضة والعقول الزائفة انه ولى التوفيق .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

المجمع العلمى الاسلامى

ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)

٧ من شوال المكرم ١٣٩٤ هـ

٢٤ من أكتوبر ١٩٧٤ م

(١) المراد بها حكومة باكستان التى أعلنت فصل القاديانيين عن المسلمين ،
واعتبارهم أقلية غير مسلمة ، ومما يجب الاعتراف به أن رابطة العالم الاسلامى فى
مكة المكرمة قد كان لها دور ايجابى وفعال فى ائارة العقول حول القاديانية وتزويد
العالم الاسلامى بالمعلومات الصحيحة كما كان لعلماء باكستان - وفى مقدمتهم وعلى
رأسهم العلامة محمد يوسف البنورى وزعماء الجمعيات الاسلامية - فضل كبير فى
الوصول الى هذه النتيجة التى كان المسلمون يتوخونها منذ زمن بعيد .

فى مجتمع اسلامى او فى مكتبة أثرية (١) ، وأجمع عليه المسلمون وتواتر منذ أن تم هذا العمل ، وأطبق عليه المسلمون الى هذا العصر الذى أصبح القرآن فوق متناول المحرفين والمغرضين والعابثين ، لكثرة الحفاظ والعناء المتقنين له ، وكثرة التداول بين الناس ، وكثرة الطبعات ، وقد اعترفت الموسوعة البريطانية ، بأن القرآن هو أوسع كتاب على وجه الأرض (٢) .

وقد اتفقت كلمة المستشرقين ، وعلماء الغرب المحققين الذين لا يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلا من الله ، ووحيا أوحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم على صحة نقله وانتهائه بنصه الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهنا بضع شهادات لكبار العلماء المسيحيين .

يقول سير وليم موير (Sir William Muir) الذى عرف بحامله على الاسلام ، وصاحب رسالته ، حتى اضطر ذلك زعيم حركة التعليم العصرى فى المسلمين فى الهند سيد أحمد خان ، مؤسس جامعة عليكراه الاسلامية الى وضع كتابه الشهير « خطبات أحمدية » فى الرد على كتابه « حياة محمد » (Life of Mohammed) يقول موير فى نفس هذا الكتاب :

« لم يمض على وفاة محمد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة ، وقامت طوائف ، وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتنة ،

(١) يقول أ. منجانا (A. Mangana) أستاذ جامعة منسستر سابقا : ان هنالك نسخا كثيرة مخطوطة للقرآن كلها فى مكتبات أوروبا العامة لعل أقدمها ما ترجع كتابتها الى القرن الثانى الهجرى وهذه المخطوطات لا يوجد فيها اختلاف عند هئات من الكتابة العربية التى هى من عيوب الخط العربى القديم . وقرىبا من ذلك قال نولدك (Noeldeke) (دائرة معارف الأديان والأخلاق) ج ١٠ ص ٥٤٨/٤٩ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية : مادة « محمد » .

ولا تزال هذه الخلافات قائمة ، ولكن القرآن ظل كتاب محمّد الطوائف الوحيد ، ان اعتماد هذه الطوائف جميعا على هذا الكتاب تلاوة ، برهان ساطع على أن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم ، هي الصحيفة التي أمر الخليفة المظلم بجمعها وكتابتها ، فلعله هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقى نصه محفوظا من التحريف طيلة ألف ومائتى سنة « (١) » .

ويقول وهيرى (Wherry) فى تفسيره للقرآن ج : ١ ص : ٢٤٩ :
« ان القرآن أبعد الصحف القديمة بالاطلاق على الخلط والالحاق ، وأكثرها صحة وأصالة » .

ويقول بامر (Palmer) مترجم القرآن المعروف الى اللغة الانجليزية فى كتابه (The Quran introduction) : « لم يزل نص القرآن الذى رتبته عثمان هى الصحيفة المتلقاة بالقبول ، المعتمد عليها عند المسلمين » (٢) .

ويقول لين بول (Lane Poole) :
« ان أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك الى أصالته ، ان كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نشق بأنه لم يقبل أى تغيير منذ ثلاثة عشر قرنا » (٣) .

اذن فلم تعد حاجة الى نبوة جديدة ، تزيل الالتباس ، وتميز بين الحق والباطل ، وتبين كذب المفتري ، ولا الى صحيفة تحل محل هذه الصحيفة المنسوخة التى عبثت بها الأيدى ، واعتدى عليها المعتدون .

(١) (Life of Mohammed) الطبعة ١٩١٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) ص ٧٠ .

(٣) Selections from the Koran P. C. (٢)

هذه الاعترافات ملتقطة من تفسير مولانا عبد الماجد الدريابادى ، بالانجليزية .

سكوت القرآن عن بعثة نبي جديد :

وهذا الكتاب الحالد الذي هو الفرقان والميزان ، والذي هو تبيان للناس ، والذي لم يهمل أصلا من أصول الدين ، يتوقف عليه فلاح الدين والدنيا ، وتتوقف عليه النجاة والسعادة ، ساكت عن ورود نبي جديد ، مع أنه كان من أهم المهام الذي لا يقبل الغموض والابهام ، فضلا عن السكوت ، فالكتاب الذي يذكر الشيء الكثير من أشرط الساعة ، والحوادث التي تحدث في آخر الزمان ، ويتحدث عن الدخان (١) ، وعن الدابة (٢) ، ويأجوج ومأجوج (٣) ، من حوادث آخر الزمان ، كيف لا ينبىء عن نبي يبعث في هذه الأمة أو غيرها ، ويهيبى العقول والنفوس - التي تنفر عن كل جديد ، وتفر من الثكاليب والمستوليات - للترحيب به وقبول دعوته ، والانضواء الى رأيته ، وقد عرف اعتناء القرآن الزائد ، واهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم البالغ بكل ما ينفع فى الدنيا والآخرة ، والتحذير عن كل ما يضر ، ويعرض لسخط الله وعقابه ، والحرص الشديد على أن يكون المسلمون على بينة من أمرهم ، مستعدين لمواجهة ما يتحدى دينهم ، ويفسد عقيدتهم ، ويغير على ايمانهم ، وقد زحرت كتب الحديث بالأحاديث الواردة فى المسيح الدجال ، وفتنته ومحنته ، أيعقل من هذا الكتاب الذى هو تنزيل من حكيم حميد ، ومن هذا النبى الذى يصفه القرآن بأنه « عزيز عليه ما عنتم حريص

(١) « يوم تاتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم. » (الدخان

١٠ - ١١) .

(٢) « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس

كانوا بآياتنا لا يوقنون » (النمل : ٨٢) .

(٣) « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون »

(الانبياء : ٩٦) .

عليكم ، بالمؤمنين رؤف رحيم «(١) أن يترك أمته في عماء وظلام ،
وجهالة مطبقة ، وحيرة مردية ، عن هذا الحدث الأكبر ، والنبأ
العظيم الذى هو أهم بكثير مما لهج لسان النبوة بذكره ، وزخرت
دواوين السنة بتفاصيله !

الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة

ثم لم يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم ، على ما جاء صريحا
فى القرآن عن كمال هذا الدين ، وانتهاء سلسلة النبوة عليه ، مما
لا يدع مجالا للشك لكل من عرف اللغة العربية ، ولم يبتل بفساد
الذوق أو سوء النية ، أو ابتغاء الفتنة ، بل شرحه لأتمته فى وضوح
لا وضوح فوقه ، وفى بسط وتفصيل لا يتصور أكثر منه ، وضرب
لذلك الأمثال البليغة ، وقد زخرت كتب الحديث بهذه الروايات
التي وردت فى معنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر
الرسول وخاتم الأنبياء(٢) ونقتصر هنا على خمسة أحاديث وردت فى
الصحيح حتى يتبين الصبح لذى عينين :

١ - قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كانت بنو اسرائيل
تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلف نبى ، وأنه لا نبى بعدى »

(١) التوبة : ١٢٨ .

(٢) قال العلامة السيد أنور شاه الكشميرى شيخ المحمدين فى عصره
(م ١٣٥٢ هـ) فى كتابه « عقيدة الاسلام » : « تواترت الأحاديث فى ختم النبوة
نحو مائتى حديث » (ص : ٣١٨) وقد جمع العلامة المفتى محمد شفيح الديوبندى
كثير علماء باكستان الأحاديث الواردة فى هذا المعنى فى كتابه « ختم النبوة »
فبلغت ٢١٠ حديثا ، وقد تزيد على ذلك عند المستقصين ، وتكلم على هذه الأحاديث
وبحث فيها وفى أقوال العلماء والمتكلمين والأصوليين والصوفية العلامة محمود حسن
خان الطوكى (م ١٣٦٦ هـ) مؤلف موسوعة « معجم المصنفين » فى كتابه « معيار
السنة لختم النبوة » وهو من أحسن ما قرأت فى هذا الموضوع .

• يوسيكون خلفاء « (١) » •

٢ - قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (٢) •

٣ - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الانبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الفنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » (٣) •

٤ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبي » (٤) •

٥ - عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا محمد ، أنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » (٥) •

-
- (١) الجامع الصحيح للبخارى • كتاب المناقب باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ، ومسلم في كتاب الامارة وأحمد في مسنده ، وابن ماجه وابن جرير وابن أبي شيبة .
(٢) الصحيح للبخارى (كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين) ورواه مسلم وأحمد والترمذي وابن أبي حاتم ، واللفظ للبخارى •
(٣) مسلم • الترمذي • ابن ماجه •
(٤) رواه الترمذي في (كتاب الرؤيا ، باب ذهاب النبوة) وقال هذا حديث صحيح ، وقال ابن كثير في تفسيره ، أخرجه أحمد أيضا •
(٥) رواه البخاري ومسلم وأبو نعيم في المعاني

اجتماع الصحابة والأمة الاسلامية على انقطاع النبوة
بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واستبشاعها ورفضها لهذه
الدعوى

وبسبب هذه الآيات البيّنات المحكمات ، والأحاديث
الصحيحة الصريحة ، التي بلغت حد التواتر ، أجمع الصحابة رضی
الله عنهم - واجماعهم أكبر دليل من دلائل الثبوت الشرعى - على
انقطاع النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا نبي بعده
فى كل مفهوم من مفاهيم هذه الكلمة العربية التي كانوا يحسنون
فهمها ، ولذلك انفقت كلمتهم عن آخرهم على قتال مسيلمة الكذاب ،
والحكم بكفره وردته ، لم يشذ منهم فى ذلك شاذ ، مع أن
مسيلمة كان مقرا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان يؤذن
للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويشهد فى الأذان أن محمدا رسول
الله (١) ، وكان مؤمنا بالقرآن يرى العمل به فرضا ، وانما كان يفسر
القرآن حسب أهوائه ، ويدعى الالهام ، وكان يدعى أنه أشرك فى
نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة
للشريعة المحمدية ، وكل من ادعى ذلك فى العصور الأخيرة كان
تابعا له ، وقد قتل فى حرب اليمامة ألف ومائتا رجل من خيار
المسلمين ، كما جاء فى كتاب كتبه أبو بكر الى خالد بن الوليد (٢) ،
وقتل الأسود العنسى الذى ادعى النبوة فى عهد رسول الله صلى الله
عليهم وسلم .

ثم أجمع المسلمون فى كل عصر على انقطاع النبوة بعد محمد
صلى الله عليه وسلم ، وأن كل من يدعيها مارق من الدين ، متبع غير

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٥٤ .

سبيل المؤمنين^(١) ، واستفاضت هذه العقيدة في العالم الاسلامي كله ، وأصبحت جزءاً من عقائد المسلمين التي يدينون بها ويعضون عليها بالنواجذ ، وتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسخغ ادعاء النبوة ولا تحتمله^(٢) ، لذلك قل عدد المنتسبين في المجتمع الاسلامي بالنسبة الى اتساع العالم الاسلامي ، وتفاوته في فهم الدين والتمسك به ، وبالنسبة الى عدد المسلمين الضخم ، واضطراب الأمور فيهم ، وبالقيااس الى كثرة الدواعي الى هذه الادعاءات ، بالعكس من الأمم السابقة التي كثر فيها عدد المنتسبين مع ضيق رقعة الارض التي كانت تسكنها ، وقلة عدد المتدينين الذين كانوا يدينون بهذه الديانات .

ثم ان من ادعى النبوة لم يحقق من النجاح ، ولم يكتسب من الأتباع ما كان يخشى من جهالة المسلمين ، ودهاء المنتسبين ، وماوردت به الأخبار الصحيحة عن عدد المنتسبين (الذي لا يتجاوز سبعين الى

(١) قد نقل الاجماع على ذلك القاضي عياض (م ٥٤٤ هـ) في كتابه المشهور « الشفاء » وبسط القول فيه . (« الشفاء » ج ٢ ص ٢٧٠ - ٢٧١) والعلامة الشهرستاني (م ٥٤٨ هـ) في كتاب « الملل والنحل » ج ٣ ص ٢٤٩ . والعلامة ابن نجيم (م ٩٧٠ هـ) في كتاب « الأشباه والنظائر » ص ١٧٩ ، والعلامة ملا على القاري (م ١٠١٦ هـ) في شرح « الفقه الأكبر » ص ٢٠٢ . ومن كبار الصوفية ، الامام عبد الوهاب الشعراني في كتاب « اليواقيت والجواهر » ص ٢٥ . وكسل ما نقل خلافه عن عالم من علماء المسلمين الذين عليهم الاعتماد ، اما مفترى عليه ، واما مدسوس في الكتاب ، واما قطعت عبارته عن سياقها وحرفت عن موضعها ، واما أسىء فهم مراده عن قصد أو عن غير قصد .

(٢) لقد خلد التاريخ أسماء من ادعوا النبوة ، ولقبهم المسلمون بالمتنبيين ، وبقي هذا العار واللقب الشنيع لاصفا بهم ، ولم يسامح التاريخ في ذلك أشهر شاعر من شعراء العربية ، وقد انتهت اليه رئاسة الشعر ، وعقد له اللواء ، وهو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي (م ٣٥٤ هـ) وقد غلب عليه لقب « المتنبي » فغطى اسمه .

أن تقوم القيامة) والذي سجله التاريخ من أسمائهم وأخبارهم قليل ، نظرا الى اتساع الأمة الاسلامية ، وامتداد نفوذ الاسلام ، واضطراب العقائد ، وتشتت الأغراض والمذاهب ، وتلك نتيجة رشوخ عقيدة ختم النبوة في أذهان المسلمين وتغلغلها في أحشائهم ، ولوضوح الآيات ، ولصراحة الأحاديث ، التي وردت في هذا المعنى وشهرتها واستفاضتها .

انقطاع النبوة تكريم للانسانية ورافة بها :

أشارت الحكمة الالهية بختم النبوة الى أن الانسانية قد بلغت سن الرشد ، ومرحلة النضج والاستواء ، فقد خرجت من اطارها الضيق الذي عاشت فيه قرونا طويلة ، لأسباب تاريخية طبيعية يطول شرحها ، واستعدت لأن تدخل في مرحلة جديدة من العلم والمدنية ، والتعارف والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبيعية والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ، وخرجت من مفهوم الأسر والقبائل ، والشعوب والأقاليم الى مفهوم العالم الفسيح ، والانسانية الواسعة ، والهداية العامة والعلم المشاع .

وكانت كل الشواهد والتجارب تدل على أن سعادتها في الاعتماد على ما نزل من وحى ، وصح من عقيدة وتشريع ، وتعين من حدود وغايات ، وأصول وكليات ، عن طريق النبوة التي كانت خاتمة للنبوءات ، وعن طريق الكتاب الذي كان مهيمنا للكتب ، والسير في ضوئه على هدى وبينة ، وشق طريق الحياة الى الأمام ، والاعتماد في مجال الحياة على القوى الطبيعية ، ووسائل العلم ، والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، والسعى الهادف .

وكان شقاؤها في الزمن الماضي بالتباس الأموز ، واختلاط الحق بالباطل ، وكثرة الدعوات المدعية للاتصال الخاص بالسماء ،

وتلقى التعاليم من فوق كذبا وزورا ، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس .

وكان هلاك أمم كثيرة بالكفر بالأنبياء الذين كانوا يعيشون فيها ، والذين كان يأتي بعضهم على اثر بعض ، فان النبوة ليست زعامة سياسية ، أو رئاسة دنيوية يهون انكارها ومحاربتها ، والثورة عليها ، انما هي فرقان بين الحق والباطل ، وبها تتم حجة الله على هذه الأمة التي يبعث فيها النبي ، ويعرف المتتبع للقرآن أن سبب هلاك الأمم السابقة لم يكن بالكفر المطلق ، وبمجرد فساد العقائد والأعمال والأخلاق ، انما كان لتكذيبها بالنبي المبعوث فيها ، واستهزائها به ، واهانتها له ، وقد قص القرآن قصة هذه الأمم في بسط وتكرار ، واجترائها على نبيها المرسل ، وما لقيه منها من أذى وسخرية واهانة أحيانا أخرى ، والآيات في هذا المعنى كثيرة يصعب استقصاؤها ، ونقتصر هنا على بعضها :

« وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » (١) .

« كلما جاء أمة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » (٢) .

« قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ، فبعدا للقوم الظالمين » (٣) .
« ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون » (٤) .

(١) سورة غافر : ٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون : ٤٤ .

(٣) سورة المؤمنون : ٣٩ - ٤٠ - ٤١ .

(٤) سورة الأنعام : ١٠٠ وسورة الأنبياء : ٤١ .

« ولقد استهزى برسلك من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » (١) .

- « ان كل الاكذب الرسل فحق عقاب » (٢) .
- « وما أهلكتنا من قرية الا لها منذرون » (٣) .

وفى انقطاع النبوة توفير للجهد البشرية والطاقات الانسانية عن أن تمتحن وتستنفد بعد كل فترة زمنية ، أو على مسافة مكانية ، فى التصديق والتكذيب ، والايان والكفر ، وذلك شىء طبيعى ، اذا استمرت سلسلة النبوة ، واتصال الأرض بالسمااء لتلقى الوحي الجديد ، والتعليم المفيد ، والشرع المزيد ، ونهض بعد حقبة من الزمان قد تطول وقد تقصر ، وعلى مسافة من المكان قد تبعد وقد تقرب ، من يدعى النبوة ، ويدعى أن الله يخاطبه ويوحى اليه ، وأنه كلف تبليغ الرسالة ، ويحكم بكفر من يكفر به وينكر نبوءته ، ويحاربه حربا شعواء لا هوادة فيها ولا رفق ، ولا استثناء فيها ولا رفق ، وينحت من الأمة الواسعة ، التى ملأت الآفاق ، أمة صغيرة ، قد يبلغ عددها الى مئات من النفوس ، أو الى آلاف أو مئات آلاف ، وهكذا يتشاغل الناس - بعد كل فترة من الزمان - وفى أمكنة متعددة فى هذا العالم الفسيح فى وقت واحد ، بالحكم على هذا المدعى أو المدعين ، منهم المغبون فى عقله ، ومنهم المحترف بدينه ، ومنهم من هو صنيعة لغيره ، أو الملبوس عليه فى عبادته لقله علمه ، وكثرة مجاهدته ، قد اتخذها الشيطان مطية ولعبة ، أو الحكومات ، أو أصحاب الأغراض السياسية وسيلة وذريعة ، الى غير ذلك من الامكانات التى لا ينكرها العقل ، ولا تنفيها التجربة ، ولا يكذبها الواقع ، فكل ذلك وجد فى

(١) سورة الرعد : ٣٢ .

(٢) سورة ص : ١٤ .

(٣) سورة الشعراء : ٢٠٨ .

الديانات السابقة ، وظهر في الأمة الاسلامية في بعض الفترات التاريخية .

مشكلة كثرة المتنبيين في الديانات السابقة وخطرها على سلامة العقيدة ووحدة الديانة

وتدل مطالعة صحف « العهد القديم » دلالة واضحة على أن عددا كبيرا من أصحاب الطموح ، وعشاق الجاه ، والزعامة الدينية ، تزعموا النبوة والكهانة ، والاتصال بعالم الغيب اتصالا مباشرا معتمدين في ذلك على رؤى وأحلام كانوا يرونها ، وقد أحدث ذلك فتنة عظيمة في المجتمع اليهودي ، حتى لزم أن ينبه عليها عن طريق الصحف التي نزلت على أنبياء بنى اسرائيل ، وهنا نقتصر على بضع شهادات ملتقطة من « العهد القديم » .

« هانذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة ، يقول الرب : الذين يقصونها ويضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاجراتهم ، وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم ، فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة يقول الرب » .
(ارميا ، الأصحاح ٢٣ ، آية ٣٢)

« فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعانفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب ، لكي يبعدوكم من أرضكم ولأطردهم فتهلكوا » .
(ارميا ، الأصحاح ٢٧ ، آية ٩ - ١٠)

« فتحققت وهو ذا لم يرسله الله ، لأنه تكلم بالنبوة على ، وطوبيا وسنبسط قد استأجراه ، لأجل هذا قد استؤجر لكى أخاف وأفعل هكذا وأخطيء فيكون لهما خبر ردىء لكى يعيراني » .
(نحميا ، الأصحاح ٦ ، آية ١٢ - ١٣)

« وكان الى كلام الرب قائلا: يا ابن آدم تنبأ على أنبياء اسرائيل

الذين يتنبأون ، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذاتهم اسمعوا كلمة الرب ، هكذا قال السيد الرب ، ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روعهم ولم يروا شيئا » .

(حزقيال ، الأصحاح ١٣ / ٢ - ٣)

« صار في الأرض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبأون بالكذب ، والكهنة تحكم على أيديهم وشعبي هكذا أحب وماذا تعملون في آخرتها » .

(ارميا ، الأصحاح ٥ - ٣٠ - ٣١)

« لأنه هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل : لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم ، وعرافوكم ، ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها ، لأنهم انما يتنبأون لكم باسمي بالكذب ، أنا لم أرسلهم يقول الرب » .

(ارميا ، الأصحاح ٢٩ / ٨ - ٩)

ويبدو من الوثائق التاريخية اليهودية ، أن سلسلة هؤلاء المتنبئين استمرت الى بعد عهد تدوين صحف « العهد القديم » ، وقد تكاثر هؤلاء « المتنبئون » اليهود في البيئات التي كان اليهود فيها هدف الاضطهاد والقسوة والاهانة ، واستشرف المجتمع اليهودي من ينقذه من هذه الحالة المزرية ، وينتصف من عدوه ، ويرد اليه الاعتبار والكرامة ، واستغل هذه النفسية المكلمة المتوترة بعض الأذكياء الذين لا يخافون الله ، ولا يرجون حسابا ولا كتابا ، فاعتبروا ذلك فرصة سانحة لتحقيق مآربهم الشخصية ، أو أغراضهم السياسية ، ففاجأوا أبناء ملتهم بمبشرات وتكهنات ، ووعود خلافة ، وأسسوا عليها نبوتهم الجديدة ، وكان لها سحر عجيب في النفوس البائسة ، التي ضاقت ذرعا بالظروف القاتمة التي طال أمدها ، فأقبل عليهم عدد كبير من المصدقين والمصدقين ، واضطربت العقائد ، وشاعت البدع ، ونشأت طوائف محدثة هالت الغيارى على التعليمات اليهودية الأصلية وأفزعتهم ، يقول البرت ايم تايمسن (Albert M.

(Taymson) عضو المجمع التاريخى اليهودى الأمريكى البريطانى
فى دائرة معارف الأديان والأخلاق :

« يكتر الحديث فى تاريخ اليهود عن المتزعمين الذين كان كل واحد منهم يدعى أنه « المسيح الموعود » وذلك فى الفترة التى أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت الى عدة أجيال ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر ، والغد الباسم لا يزالون يبعثون فى اليهود - فى أحلك عصورهم - أمل العودة الى وطنهم الذى أجلى منه آباؤهم فى الزمن الماضى ، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض فى أمكنة وأزمنة يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزى ، وكانت هذه الحركات غالباً تتسم بالسمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات فى الزمن الأخير ، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرد عن المظهر الدينى تجرداً كاملاً ، ولكنها كانت فى غالب الأحيان تشجع على البدع ، وتوسع بذلك نفوذها ، وتقوى سلطانها ، لذلك كانت جنايتها عظيمة على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنتج فرق متطرفة تنضم أخيراً الى المسيحية أو الاسلام (١) .

وقد استمر التنبؤ والتزعم للنبوة بدوافع شخصية وطائفية واقتصادية وسياسية الى ما بعد المسيح ، وهنا شهادات من « العهد الجديد » تدل على كثرة المتنبئين وخطرهم .

« وفى تلك الأيام انحدر من أورشليم الى انطاكية وقام واحد منهم اسمه « اغابوس » ، وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة الذى صار أيضاً فى أيام كلوويس قيصر » .
(أعمال الرسل ، الأصحاح ١١ / ٢٧ - ٢٨)

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encyclopaedia

Religion and ethics ج ٨ ، ص ٥٨٨ .

« وبينما نحن مقيمون أياما كثيرة انحدر من اليهودية نبي اسمه
أغابوس فجاء إلينا ، وأخذ منطقة بولس ، وربط يدي نفسه ورجليه ،
وقال هذا يقول الروح القدس ، الرجل الذى له هذه المنطقة ، هكذا
سيربطه اليهود فى أورشليم ، ويسلمونه الى أيدي الأمم » .
(أعمال الرسل ، الأصحاح ، ٢١ / ١٠ ، ١١)

« احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان
ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة » .
(انجيل متى ، الأصحاح ، ٧ / ١٥)

« ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة
كى يوجدوا كما نحن أيضا فيما يفتخرون به ، لأن مثل هؤلاء هم
رسل كذبة ، فعلة ، ماكرون ، مغترون شكلهم الى شبه رسل
المسيح » .
(رسالة بولس الرسول الثانية الى أهل
كورنتوش ، الأصحاح ، ١١ ، ١٢ ، ١٣)

« أيها الأبحار لا تصدقوا كل روح ، بل امتحنوا الأرواح
هل هى من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم » .
(رسالة يوحنا الأولى ، الأصحاح ، ٤ / ١)

« وكان قبلا فى المدينة رجل اسمه سيمول ، يستعمل السحر ،
ويدهش شعب السامرة قائلا : انه شىء عظيم ، وكان الجميع يتبعونه
من الصغير الى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة » .
(أعمال الرسل ، الأصحاح ، ٨ / ٩ ، ١٠)

« ولما اجتازا الجزيرة الى بافوس ، وجدا رجلا ساحرا ، نبيا
كذابا يهوديا ، اسمه باريشوع » .
(أعمال الرسل ، الأصحاح ، ١٣ / ٦)

« فأجاب يسوع وقال لهم انظروا لا يضلكم أحد فان كثيرين

• سيأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح ، ويضلون كثيرين »
(انجيل متى ، الأصحاح ، ٢٤ / ٤ ، ٥)

• « هل يجتنون من الشوك عنباً ، أو من الحسك تيناً »
(انجيل متى ، الأصحاح ٧ / ١٦)

أما ما يتصل بالعهد المسيحي والحديث عن مشكلة ظهور
المتنبئين والكهان ، والمتزعمين للهدايا الربانية المباشرة ، فنقتصر
هنا على شهادة واحدة لكاتب مسيحي صاحب اختصاص في الموضوع ،
يبدو للمتأمل فيها تدمير العلماء المسيحيين من هؤلاء المتنبئين الذين
تكاثر عددهم في العهد الأخير ، واشفاقهم البليغ على سلامة العقيدة
ووحدة الديانة ، وهدوء الحياة ، يقول « ايدون ناكس متكل »
(Edwin Knox Mitchell) استاذ تاريخ الكنيسة اليونانية
الرومية ، والكنيسة الشرقية في مهد الديانات بـ « هارت فورد
(Hart Ford) في مقال كتبه لدائرة معارف الديانات والأخلاق ،
يقول هذا الكاتب :

« ان ظهور المتنبئين الأدياء الذين كانوا يدعون الحكمة التي
مصدرها الغيب وما وراء العقل ، أحدث اضطراباً وعدم ثقة ، وجعل
قادة الكنائس وأساقفتها يشعرون بالخطر الذي كان يتهدد مستقبلها ،
ويخلق على رؤوسهم ، ولكنهم لم يهتدوا بعد الى طرق تأديبية ملائمة
وافية بالمراد ، لجزر هؤلاء الأدياء والدعاة ، الذين كانوا يزعمون
أن الله يكلمهم ويوح لهم بأسراره المكتومة ولم يكتشفوا بعد ميزانا
يتمحن به مدى روحانية هؤلاء المتزعمين ، ومبلغاً من الصدق ، وكان
العشور على هذا المعيار والمحك قد أصبح لازماً لمصالح الكنيسة ،
وكانت الكنيسة مهتدية اليه لا محالة ، لتصون الدين - عن طريق
هذا المحك - عن الفوضى في المبادئ الأساسية ، والحياة عن الاتجاه
الى الالحاد ، وهكذا تستطيع أن تنشئ سياجا حول كيائها تعيش فيه
يهدوء وسلام » •

ويقول وهو يتحدث عن كثرة الأدياء والمنتبين في العالم
المسيحي :

« أن تأليف « هيرمو باستر ”Hermo Paster“ الذي سماه
”Mand“ ومؤلفات « اجناتيس ”Ignatius“ مملوءة بتبنيها
وتعليمات ضد الدجالين من المنتبين والمعلمين » .

وتدل مطالعة كتاب ”The didache“ على أن الكهانة
كانت لا تزال تتمتع بحرية زائدة ، بل كانت لها مكانة مرموقة في
سوريا (أو مصر) مع أنها كانت في غالب الأحيان مصطنعة مزورة ،
وكانت الكنيسة ترفضها رفضا باتا ، ولكنها كانت تلفظ أنفاسها
الأخيرة ، وكانت لتفقد اعتبارها في المستقبل القريب ، وتواجه
معارضة واجهها جميع الأشخاص الذين غلوا في ادعاء الحكمة الغيبية ،
الى العارفين الروحانيين (غنوسطين) ”Gnostics“ والمارسين
”Marcion“ كان لهم أنبياء يختصون بهم ، وكنائس تتصل بهم
وكان من الصعب في بعض الأحيان التمييز بينهم ، وكان حركة
« مونتازم » (Montanism) مشجعة لدعوى النبوة ، وكانت
في الحقيقة سعيًا وراء احياء الأحوال البدائية التي مرت بها المسيحية ،
حين كان كل مؤمن بهذه الديانة حرا في استخدام المواهب التي
أكرمه الله بها .

واتخذت الكنيسة موقف الدفاع (ضد هذا السبيل الجارف
من النبوءات والكهانات ، والمزاعم والادعاءات) وهكذا فرضت رقابة
وحجرا عن طريق الوثائق المكتوبة على الكهانة والنبوءات ، وهكذا
فقدت الدعاوى الطويلة العريضة ، و « المعجزات وشفاء الأمراض
قوتها ونشاطها ، ولم ينتهي القرن الثاني المسيحي ، حتى أصبح
رؤساء الكنيسة والمسئولون عنها مسيطرين على أصحاب الكهانات

والنبوءات ، مالكين لزامهم ، (١) .

ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع هذا الدين الكامل :

ثم قد اقتضى ذلك - ختم النبوة - طبيعة هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، تاما كاملا ، فى العقائد والشرائع ، والتعاليم الخلقية والاجتماعية والمدنية ، حاويا للأسس السليمة الصالحة ، التى يقوم عليها المجتمع الصالح والمدنية الرشيدة فى كل زمان ومكان ، ويبلغ بها الفرد البشرى ذروته فى التقدم والاكتمال ، ويحقق به أهدافه الصالحة من غير أن يشعر بعرقلة فى هذا السير الطبيعى ، والبلوغ الى قمة الحسن والاحسان ، والجمع بين حسنى الدنيا والآخرة ، ومن غير أن يشعر بنقص فى مجال التشريع ، وعجز عن مسايرة الحياة ، وتحقيق مطالبها الفطرية ، بل يجد هذا التشريع سابقا للزمن ، باهرا للعقل البشرى .

وقد دلت دراسة الكون ، وتتبع سنن الله فى هذا العالم الفسيح ، وفى ماضى الأمم وحاضرها ، أنه لا فضول عنده ولا تقصير ، وأن كل شئ عنده بمقدار ، وأنه ينزل الأشياء كلها بقدر ، وأن كل ما نراه مما يبدوا زائدا أو قليلا ، أو متجاوزا أو متخلفا ، انما هو من قصور نظرنا وقلة علمنا ، والتكليف والتشريع أحق من التكوين والعالم الطبيعى ، بالدقة والاتقان والتناسب ، لأنه غاية ، والكون وسيلة ، فلو لم يقم دليل نقلى على اختتام النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم لعرفنا بحكم العقل أن النبوة الجديدة التى يمتحن بها البشر بعد النبوة المحمدية ارهاق للبشرية ، فيما لا لزوم

(١) راجع مقال « النبوة والتنبيؤ (فى الدور المسيحي) دائرة معارف الديانات

(Encyclopaedia of Religion and ethics

والاخلاق

1939 pp. 383/84).

له ، وجهاد فى غير جهاد ، ومخالف لما عرفناه من سنن الله فى خلقه
وفى هذا العالم .

حيوية هذا الدين ، وقوة توليده ، ونتاجه

للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين :

وليس لأحد من أفراد الأمة بل من أفراد البشر ، فى أى عصر
من العصور ، عذر فى عدم الوصول الى مراتب اليقين ، وأعلى درجات
القرب والوصول ، وغاية الرضا والقبول ، والاحبات والانابة ،
وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، الا ضعف ارادته وفتور همته ،
واخلاده الى الأرض واتباع الهوى ، أو جهله للقرآن والحديث ، والا
فهذا الدين زاخر بالحياة والقوة والجدة ، متكفل بجميع السعادات
الدنيوية والأخروية ، يبلغ الانسان بالعمل به - فى جد وعزم
واخلاص - الى درجة من درجات القرب والسمو والكمال ، ليست
فوقها الا النبوة .

« وحسبنا الكتاب المعجز الخالد الذى يتدفق بالحياة والقوة ،
والذى لا تبلى جدته ، ولا تنقضى عجائبه ، و « الصلاة » التى تزخر
بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير فى ربط الصلة
بالله والوصول اليه ، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشيء آخر
فى الدين ، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة فى كل
عصر وجيل ، الى مكانة فى الايمان واليقين والعلم والمعرفة ، والربانية
والروحانية ، والقرب والولاية لا يصل اليها ذكاء الأذكيا ، وقياس
العقلاء والحكماء ، وما زالوا فى عدد يفوق العد والاحصاء ، ولا يزالان
يفيضان النمو والحياة ، والجدة والنشاط ، والروحانية الصافية
الدافقة فى نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغنى بهما هذه الأمة عن
نبوة جديدة ، وبعثة جديدة ، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به فى
كل دور من أدوار حياتها ، وفى كل عهد من عهود التاريخ ، تستمد

لنفسها من القرآن والصلاة رابطة قلبية وقوة روحية ، وتمد الى العالم المعاصر يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » (١) .

ثم ان هذا الدين تكمن فيه قوة حافزة عجيبة ، على الثورة على كل ما يخالف هذا الدين وينحرف عن الجادة ، ويعرض الانسانية وبقيها الخير للهلاك والتلف ، باعثة على التحدى للباطل ، ومحاربة قوى الشر والرذيلة ، والدعاة الى الافساد والاحاد ، ورد الأمر الى نصابه ، وعلى الحسبة على الأخلاق ، وكلمة حق عند سلطان جائر ، والمجازفة بالحياة ، والتخلي عن المنافع واللذات ، والانكار على البدع والخرافات ، والفتن والضلالات ، مهما كلف ذلك من خسارة في الأموال والأرواح ، وعذاب للأبدان والأجسام ، فلم يزل هذا الكتاب الذي يفرض على المسلمين أن يكونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، غير متعاونين على الأثم والعدوان ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، أمرين بالمعروف

ناهين عن المنكر ، أولياء لله ولأتباعه ، محاربين للشيطان وأوليائه ، لا يبيعون دينهم بدنياهم ، ولا يؤثرون العاجلة على الآجلة ، وترد الأخبار الصحيحة الصريحة الحاسمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد بما استطاعه الانسان من يد ومن لسان وقلب ، والوعيد الشديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومالاً أعداء الله والمحرفين والمبتدعين ، وتواتر ذلك واستفاض ، فظل

(١) سورة الحج : ٧٨ ، ما بين الهالين مقتبس من كتاب المؤلف « الأركان

هذا الكتاب ينشئ في كل ناحية من نواحي العالم ، وفي كل فترة من فترات التاريخ الاسلامي ، من يحمل راية الجهاد والتجديد ، ويقود حركة الاصلاح والدعوة ، ويخوض المعركة ، غير مكترث بالعواقب « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا(١) » .

وقد بشر نسان النبوة بأن الله يقيض لهذه الأمة في كل قرن - وهو فترة زمنية ذات اعتبار في حياة الأمم - من يقوى صلتها بهذا الدين وينفخ فيها روحا جديدة ، فقال : « ان الله يبعث لهذه الأمة على كل رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها »(٢) .

وهو الكتاب الذي منع من الانحراف مع تيار الفساد والضلالة ، والترف والجاهلية ، ونفخ روحا جديدة في أجساد ضعيفة ، وأشعل شعلة الايمان والحماس في همم هامدة ، وقلوب خامدة .

اتصال تاريخ الاصلاح والتجديد في الاسلام ، وسره :

« ان تاريخ الاصلاح والتجديد متصل في الاسلام ، والمتقضى لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلعة في جهود الاصلاح والتجديد ، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدة للتفكير ، والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الاسلامي ، وخبث مصابيح الاصلاح ، وخفتت أصوات

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ .

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولعلماء الاسلام بحوث ورسائل في شرح هذا الحديث وذكر من كان مصداقه في تاريخ الاسلام ، تجلت فيها أذواقهم واتجاهاتهم .

الحق ، ومات الضمير الاسلامى ، وتبلد الشعور ، وأضرب الفكر الاسلامى عن العمل ، ان هذه الثغرات التى قد نشعر بها فى دراستنا العابرة للتاريخ الاسلامى ، وفى نظرتنا العجلى فى كتبه ، ان مردها الى منهاج التأليف الذى اتخذه المؤرخون للاسلام قديما وحديثا ، ودرجت عليه الأجيال ، ان النقص فى التأليف وليس فى التاريخ ، أو بكلمة أخرى : ان المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المجددين والمصلحين ، الذين ظهروا حيننا بعد حين ، وحفظوا على الاسلام جدته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورة فى ركام الماضى ، لا يهتدى اليها أحد فى هذا العصر الا بعد بحث وعناء ، وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها الا بشق الأنفس ، واجهاد العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستند الى الملك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت فى عصرها صاحبة حول وطول ، ولكنها طويت - بفضل جهود هؤلاء المسلمين المصلحين المخلصين - فى صحائف الماضى ، وأصبحت موضوع علماء الآثار ، لا محل لها الا فى المتاحف والصحائف» (١) .

جناية عقيدة استمرار النبوة أو « الامام المنتظر » على الشعور بالمسؤولية ، وقوة مقاومة الفساد :

ولا شك أن الفضل فى اتصال تاريخ الجهاد والتجديد ، والبطولات والمغامرات ، فى سبيل اعادة الأمور الى نصابها ، والمياه الى مجاريها الطبيعية ، والأخذ على يد الظالم ، والانتصار للمظلومين فى تاريخ الاسلام ، يرجع الى اعتبار الأمة - خاصة العلماء منها - نفسها مسئولة عن اقامة الحق والعدل ، والموازين القسط ، والأمر

(١) مقتبس من « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » ص ٢٧ .

بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى الدين الخالص ، لا تنتظر
لذلك نبيا جديدا يبعث ، وقوة غيبية تتصل بالسماء اتصالا مباشرا ،
ولا تعتمد في ذلك على شيء غامض يجعل عن العقول والظواهر ويدق
فهمه ، فيقوم على مجرد التقليد والتقليد والتقليد .

والامم والطوائف - الاسلامية وغير الاسلامية - التي تمسكت
بمثل هذه العقائد ، لم تعتبر نفسها مسئولة ولا مكلفة لمحاربة الباطل
وقوى الشر ، واقامة الحق والعدل ، وعاشت في عالم الخيال والاماني
والاحلام قرونا طويلة ، واستسلمت للأوضاع الفاسدة ، وأخلدت
الى الدعة والراحة والتواكل ، وضعفت في تاريخها حركة الاصلاح
والتجديد ، وخفضت أصوات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
ويحار المنتبغ لتاريخها في فهم السر في هذا الفراغ الذي لا
يحمل على مجرد مصادفة ، ويعجز عن تعليله ، وما ذلك الا لاعتماد
هذه الطائفة الاعتماد الزائد على شخصية غامضة مقدسة ، تحمل من
علوم الأسرار والأمانة الباطنة ، والصلة السرية بينه وبين فاطر
الكون وصاحب الرسالة ما لا يحمله غيرها ، وستفاجيء العالم
بظهورها في وقت مناسب ، وتقلب الأوضاع (١) .

ولا شك أن قضية نبي جديد ، وأنبياء جدد ، وعقيدة استمرار
النبوة ونزول الوحي والمكالمات والمخاطبات الالهية التي أسس عليها
بعض المدعين نبوتهم ، واستدلوا بها في صدق دعواهم ، أدق وأخطر ،
وأعمق تأثيرا في العقول والنفوس ، فانها تضعف ثقة هذه الأمة

(١) وخير مثال لهذا الاعتقاد والاعتماد ، ما يعتقد الشيعية الامامية في الامام
الغائب ، وهو الامام الثاني عشر في اعتقادهم ، فيعتقدون أنه يرجوعه يملا الأرض
عدلا كما ملئت جورا ، وهو محمد المهدي ابن الحسن العسكري ، ولد ببغداد سنة
٢٥٥ هـ ويعتقدون أنه دخل مع أمه سردابا في « سامراء » ولم يعد الى الآن وهو حي
لم يموت (اقرأ « أصل الشيعة وأصولها » للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء
ص ٢ - ١٠٩) .

بصلاحية دينها وشريعته ، وخلود رسالتها ، واستغنائها عن نبوة جديدة ، وعن تعليمات جديدة من السماء ، وتحول بينها وبين اعتمادها على طاقتها وصلاحتها وكفاحها ، من حيث تشعرون ومن حيث لا تشعرون ، هذا عدا أن امكان ذلك يجعلها فريسة للأدعياء والدجالين ، والمحترفين المشعوذين ، ولعبة لدهائهم وذكائهم .

رحمة بالأمة الاسلامية ومنة عليها :

فكان من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة ومن خصائصها سد هذا الباب الى الأبد ، والاعلان السافر الصريح الواضح البين بأن النبوة قد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الدين قد أكمل للمسلمين قبل أن يفارق الرسول هذا العالم ، ويلحق بالرفيق الأعلى وأن الله قد أتم نعمته على هذه الأمة ، فلا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أمة بعد الأمة الاسلامية ، وتلك نعمة حسد المسلمين عليها حكماء اليهود وفقهاؤهم الذين عرفوا بلاء اليهود من أدعياء النبوة وامتزعيها في العالم اليهودي ، وما جر ذلك من بلبلة فكرية واضطراب عقائدي ، وصراع مذهبي ، وتمزق اجتماعي ، فقد جاء في الحديث الصحيح : « جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين انكم تقرأون آية في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت ، لا اتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأى آية ؟ قال : قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي » فقال عمر - رضى الله تعالى عنه - : « والله انى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عشية عرفه فى يوم الجمعة » (١) ، وهذا يدل على عظم هذه النعمة وجلالتها ، حتى يتحسر

(١) رواه البخارى ، وأصحاب الصحاح والسنة ، والامام أحمد ، واللفظ لأحمد

علماء اليهود ، وبحسدوا المسلمين عليها ، كما أنه يدل على أن الأديان السابقة لم يكن لها حظ من هذا الاعلان والضمان ، والكرامة والكفالة ، وكان ذلك بطبيعة الحال ، فانها كانت في دور النشوء والارتقاء ، وكانت السلالة البشرية في دور التطور والانتقال ، وكانت الرسالة الأخيرة الخاتمة التي فصلت على أكبر قامة وأدق مقياس لم تنزل بعد ، وتلك مزية خص الله بهامحمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل وخاتم النبيين ، وأكرم الله بها هذه الأمة ، آخر الأمم وأوسطها .

الحارس من الفوضى الفكرية :

لقد بقيت عقيدة ختم النبوة تحرس هذا الدين من غائلة المبندعين ، وفتنة المتنبيين والمتزعمين ، وتحرس هذه الأمة من الفوضى الفكرية والدينية ، التي كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها ، واستطاع هذا الدين واستطاعت هذه الأمة - بفضل هذه العقيدة - أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحتمل الصدمات العنيفة ، وبقيت وحدة في الدين والعقيدة ، لم تواجه ثورة داخلية أو اضطرابا فكريا - الا ما كان من الباطنية في العهد القديم - ولا تنقسم هذه الأمة في الأمم ، لكل وجهتها ، ولكل مركزها الروحي ومصدرها العلمي والثقافي ، ولكل تاريخ منفرد وماض مختلف .

فضل عقيدة ختم النبوة على المدنية :

وقد بعثت هذه العقيدة في الانسان الثقة ببلوغه سن الرشده ، وكان ذلك حافزا للانسان على التقدم في مضمار المدنية ، والاعتماد على العلم ، والتجربة في الحياة اليومية ، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحيا جديدا من السماء فيرفع بصره اليها ، وانما حاجته اليوم أن يفكر في مواهب هذا الكون وطاقاته التي خلقها الله تعالى

ليشغلها الانسان في صالحه ، ويستخدمها لحوائجه ، كما أن حاجته اليوم أن يفكر في نفسه ، وينظر الى الأرض لبناء حياة أفضل ، تقوم على أساس من الدين والأخلاق ، ان الاعتقاد بانتهاؤ النبوة يبعث في الانسان روح الطموح والتقدم ، ويحثه على بذل مواهبه ، ويعين له المجال السليم لكفاحه وجهوده .

لولا عقيدة ختم النبوة لفقد الانسان ثقته بنفسه ، وبقي في ريب دائم ، وظل شاخصا ببصره الى السماء ، بدلا من أن ينظر الى الأرض ، وفقد ثقته بمستقبله ، وثارث شبهاث وشكوك حوله ، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام ، ولا يظهر متنبئء يؤكد له « أن الروضة الانسانية كانت ناقصة ، فجئت وبلغت الى كمالها » (١) الا أنه يضطر الى اعتقاد أن هذه الروضة اذا كانت ناقصة الى الآن ، فأى ضمان لكاملها في مستقبل الحياة الانسانية .

وهكذا يستمر انتظاره لمن يبلغ بهذه الروضة الى حد الكمال ، دون أن يتمتع بأزهارها وأثمارها ، ودون أن يهه سقيها وريها . يقول الدكتور محمد اقبال في كتابه « تجديد الفكر الدينى في الاسلام » :

« ان النبوة في الاسلام لتبلغ كمالها الأخير في ادراك الحاجة الى انهاء النبوة نفسها ، وهو أمر ينطوى على ادراكها العميق ، لاستحالة بقاء الوجود معتمدا الى الأبد على مقود يقاد منه ، وأن الانسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو ، ان ابطال الاسلام للرهبنة ، ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، واصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الانسانية ،

(١) من كلام متنبئء الهند المرزا غلام أحمد القاديانى في شعر له .

كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة « (١) » .

فتنة المنتسبين الكبرى :

لم يمتحن الاسلام والمسلمون فى تاريخ الاسلام الطويل بفتنة اعظم وأدق من فتنة المنتسبين ، الا أن دعوة أكثرهم لم تلقى نجاحا يذكر ، وقد ماتت فى مهدها ، ولم يبق لها عين ولا أثر ، ولكن الشأن يختلف فيما يختص بمتنبيء شبه القارة الهندية فى القرن التاسع عشر والعشرين : المرزا غلام أحمد القاديانى (١٨٤٠ - ١٩٠٨) لأسباب سياسية اقتضت ذلك (٢) .

فقد فتح باب النبوة على مصراعيه ، وقال : « ان اتباع النبى صلى الله عليه وسلم يمنح كمالات النبوة ، وان العناية بذلك والاهتمام ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم » (٣) ، وقال نجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود : « لقد اعتقدوا أن كنوز الله قد نفدت ، ما قدروا الله حق قدره ، انكم تتنازعون فى نبى واحد ، وأنا أعتقد أنه سيكون هنالك ألف نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم » (٤) .

وقد أحدث ذلك فوضى فى النبوة ، وفقدت كلمة « النبوة » جلالها وحرمتها وقداستها ، وأصبحت ألعوبة وعبثا ، وهان على الناس بصفة عامة بعد المرزا أن يتنبأوا ، وما عرفنا فى التاريخ الهندى - الذى لا يزال محفوظا الى حد كبير - شخصية أنكرت ختم النبوة ، وتجرات على تأسيس دين جديد ، سوى الامبراطور « أكبر » غير أنه لم يدع النبوة ، كما ادعاها المرزا بصراحة وتنظيم ، ولكن

(١) « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » ترجمة عباس محمود . ص ١٤٤ .

(٢) راجع كتاب المؤلف « القاديانى والقاديانية » .

(٣) « حقيقة الوحى » للمرزا غلام أحمد ، ص ٩٦ .

(٤) « أنوار خلافت » ص ٦٢ .

المرزا هو أول من فتح هذا الباب بوجه عام ، ونهض عدد من المتنبئين ، وقد عد منهم الاستاذ محمد الياس البرنى الى عام (١٩٢٦ م - ١٣٥٥ هـ) سبعة ، ولا شك أنه لم يكن احصاءاً دقيقاً ، والا فان قام أحد باحصائهم بشيء من الاهتمام والدقة ، لوجد فى نفس مقاطعة « بنجاب » أكثر من هذا العدد بكثير .

وقد احتج على كثرتهم وضعف آرائهم ، وسفاهة أحلامهم المرزا بشير الدين محمود نفسه فى احدى محاضراته ، يقول :

« لقمه نشأ فى جماعتنا كثير ادعوا النبوة ، وأعتقد أنهم ليسوا فى الدعوى كاذبين غير واحد منهم ، وفى الحقيقة أنهم ألهموا فى أول الأمر ، ولا عجب اذا كان هذا الالهام باقيا الى الآن ، ولكن الخطأ الذى وقعوا فيه هو أنهم أخطأوا فى فهم تلك الالهامات ، وأنا شخصياً أعرف بعض هؤلاء حتى أستطيع الاقرار باخلاصهم وخشيتهم لله ، ولا يدري ما فى قلوبهم الا الله ، سوى أنهم كانوا فى بادئ الأمر مخلصين ، وكانت بعض الهاماتهم من الله ، ولكن الذى سبب خسارتهم هو أن حكمتها خفيت عليهم فعتروا » (١) .

فتنة « المكالمات والمخاطبات الالهية » ورؤية البارئ تعالى فى الدنيا :

ويعرف المطلع على التاريخ الفكرى وتاريخ التصوف - الاسلامى وغير الاسلامى - أن الاتصال بعالم الغيب عن طريق الرياضات والمجاهدات ، وتلقى الالهام والكلام ، والتهافت والأصوات من هذا العالم ، كان مدخلا واسعا للأوهام والمغالطات

(١) « الفضل » أول يناير ١٩٣٥ م .

والتناقضات ، ودخل منه الشيء الكثير من الأضاليل والأباطيل عن قصد وعن غير قصد ، كان من الصعب دائماً التمييز بين مصادرها ودرجاتها ، وما هو من الله ، وما هو من الشيطان (١) ، وما هو نابع عن العادات والمألوفات، والعلم السائد والثقافة المنتشرة والعقائد التي نشأ عليها هذا « الملمه » أو « المحدث » أو « المكشوف له » وقد بين علماء هذا الشأن الذين سلكوا هذا الطريق أن التجرد عن تأثير العوائد والعقائد والبيئة في تلقي هذه « المغيبات » وفهمها يكاد يكون مستحيلاً (٢) .

(١) وقد أشار الى هذا الامكان الدكتور محمد اقبال الذى كان من كبار علماء الفلسفة فى العصر الحديث ، فقال : « انى أعترف بأن مؤسس الجماعة الأحمديّة (القاديانية) سمع صوتاً ولكن الحكم بأن هذا الصوت كان من عند الله الذى بيده الحياة والقوة ، أم كان مصدره الافلاس الروحى الذى كان سائداً فى الناس ، يتوقف على هذه الحركة التى خلقها هذا الصوت ، الى أن قال : « اذا اعتقد أن هؤلاء الأبطال الذين أسهموا فى تمثيلية « الحركة الأحمديّة » كانوا العوبة فى يد الانحطاط والزوال (حرف اقبال ص ١٥٧ - ١٥٨) . وأبلغ من ذلك ما قاله فى البيت : « أعاذ الله من الهام ملهم نشأ وعاش فى حكم أجنبى ، فانه أضر بالأمم ، وأشد فتكا بها من الفاتحين الوحوش أمثال « جنكيز » و « هولانكو » .

(٢) لقد شرح الامام الربانى الشيخ أحمد السرهندى (م ١٠٣٤ هـ - ١٦٢٤ م) هذه النقطة شرحاً وافياً فى بعض رسائله وجاء بإشارات بليغة فى هذا الموضوع تقوم على التجربة الشخصية والعلم العميق والاطلاع الواسع ، انه يرى أن العقل المجرد والكشف المجرد شيان يندر وجودهما ووقوعهما ، ومن المصادفة العجيبة والتوارد الغريب أن الفيلسوف الألماني الشهير « كانت » (١٧٢٤ - ١٨٠٤) (Emmanuel Kant) الذى ظهر بعده بمائة وثمانين سنة ، أبدى عدم ثقته بالعقل المجرد ، وقدرته على التعبير والحكم متحرراً عن البيئة والمجتمع ، والتراث ، والعادات والمعتقدات (انظر كتاب نقد العقل المجرد (Critic of Pure Reason) وقد تقدم الامام الربانى خطوة وبحث فى قضية الكشف المجرد والالهام المجرد ، لأنه سار على هذا الدرب ، وجرب هذه الأمور بنفسه ، وأهل مكة أدري بشعابها (اقرأ رسالته الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله من أبناء الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندى الدهلوى - رقم ٢٦٦ - المجلد الأول) .

وكل من جعل هذه « المكالمات والمخاطبات الالهية » أو رؤية
البارى تعالى شرطا للهداية أو للنجاة ، أو لكمال الايمان (١) ، وأسس
على ذلك نبوة جديدة أو دعوة جديدة ، وألزم ما لم يلزم ، وجنى على
هذا الدين الذى هو عام للبشر جنسية عظيمة ، وافقده بساطته
وسهولته ، وعمومه للبشرية ، وفتح بابا واسعا للفساد والاضطراب
والفوضى ، كما فعل المرزا غلام أحمد القاديانى ، فقد جعل « المكالمات
والمخاطبات الالهية » شرطا لصحة الديانة ، ونتيجة طبيعية للعمل
بالأحكام الشرعية ، والسعى فى العبادة ، وزعم أن الدين الذى
لا توجد فيه هذه المخاطبات الالهية ، انما هو دين باطل وميت ، بل
هو دين الشيطان المؤدى الى جهنم ، واذا كان أتباع دين لم يتشرفوا
بهذه النعمة رغم عباداتهم وعلمهم بالأحكام الشرعية ، فانما هم فى
جهل وغواية (٢) .

وتهافت هذا الرأى وسخافته غنية عن الرد عليه ، وبسبط
القول فيه ، وحسب القارىء أن الصحابة - رضى الله تعالى عنهم -
الذين كانوا زرع النبوة وغرس القرآن ، والجيل المثالى فى تاريخ

(١) كما فعل ذلك السيد محمد بن يوسف الحسينى الجونפורى (٨٤٧ -
٩١٠ هـ) فادعى أن الانسان اذا لم يسعد بالمشاهدة الالهية ولم ير البارى تعالى
بالعين أو بالقلب فى اليقظة أو فى المنام فليس بمؤمن ، وقد أحدث ذلك اضطرابا
عظيما فى المجتمع الاسلامى الممتد من شرق الهند الى غرب أفغانستان فى القرن
العاشر الهجرى ، وأصبح الشغل الشاغل للمسلمين ، العلماء منهم والسلطان .
وكان السيد المشار اليه صاحب صدق وعزيمة ، واستعداد باطنى عظيم ، وكان له
شأن رفيع فى التأثير فى النفوس والقلوب ، والدعوة الى الله ، وايشار مرضاته على
غيره ، والزهد فى الدنيا وأسبابها ، والهجرة فى الله والأمر بالمعروف والنهى عن
المكر ، الا أنه شبه له فى فهم ما كان يكشف له أو يسمعه ، فادعى أنه « المهدى
الموعود » الذى يظهر فى آخر الزمان ، وغلا فى دعوته ، واشترط ما ليس بشرط ،
وكلف المسلمين بما لم يفرضه الله عليهم ، ولم يطالبهم به (اقرأ ترجمته فى الجزء
الرابع من نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى) .

(٢) اقرأ كتاب « براهين أحمدية » للمرزا غلام أحمد القاديانى ج ٥ ص ١٨٣ -

البشرية ، وعلى أكتافهم قام الاسلام ، لم يدعوا هذه « المكالمات والمخاطبات » ورؤية البارى تعالى بالعين أو القلب ، ولم ينسب التاريخ اليهم ذلك ، ولم يعرف عنهم التنافس فيه أو الحرص عليه ، أو التأسف على فواته ، فكيف بمن جاء بعدهم ، ولم يبلغ شأوهم فى الدين والعلم (١) .

وقد لوحظ فى التاريخ مرارا أن كل دعوة متطرفة قامت على مثل هذه الدعاوى والافتراضات والتجارب الشخصية ، لم تفد الا انشاء طائفة متطرفة تنشق عن المسلمين وتنازدهم ، وقد تكفرهم ، وتتحول على مر الزمان ديانة مستقلة ، وتصبح مشكلة جديدة فى المجتمع الاسلامى والانسانى تعيب كبار العقلاء والقادة حلها والتغلب عليها (٢) ، ولا تخدم مصلحة من مصالح الانسانية واصلاح النفوس والدعوة الى الله (٣) .

الالهام الجماعى لمصلحة الاسلام والمسلمين :

وقد أكرم الله بنصيب كبير من « الالهام الجماعى » الذى لاخطر فيه ولا ضرر ، وهو أن يلهم عدد من أصحاب النفوس الزكية ، والقصد الصالح والعلم الراسخ الصواب فيما تحار فيه الألباب ، وتختلف فيه الآراء والسعى وراء عمل فيه مصلحة الاسلام والمسلمين وتقوية للدين وذبح عن حودته ، فيشعرون باندفاع الى القيام بهذا العمل ، لا يستطيعون له قهرا ولا دفعا ، وكأنهم مضطرون الى ذلك محاسبون عليه ، فيبذلون فى ذلك النفس

(١) اقرأ للتفصيل كتاب المؤلف « القاديانى والقاديانية » الباب الرابع ،

الفصل الثانى .

(٢) وقد عالجت حكومة باكستان هذه المشكلة بفصل الطائفة القاديانية عن

المسلمين واعتبارها أقلية غير مسلمة ، رسميا ، وهذا عند كتابة هذه المقالة .

(٣) اقرأ تاريخ الحركات الهدامة فى الاسلام وفى الديانات الأخرى .

والنفيس ، ويهجرون في سبيله راحتهم ولذاتهم ، ويرون في تحقيقه أكبر سعادة وأعظم لذة .

وقد يكون ذلك بعدد قليل كما وقع في قضية الأذان لعبد الله ابن زيد بن عبد ربه ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فقد توافقت رؤياهما ، ولقن كل واحد منهما كلمات الأذان في المنام ، ووافق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحسنه ، فشرع الأذان الذى ينادى به للصلاة فى العالم الاسلامى اليوم (١) ، وكما وقع فى أمر ليلة القدر ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجالا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان متحريها فليتحرها فى السبع الأواخر » وقريب من ذلك أمر صلاة التراويح التى ثبت أصلها عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تركها بعد ثلاثة أيام لئلا تفرض على أمته فرضا فتشقى عليها (٢) ، وكان المسلمون يصلونها فرادى ، فجمعهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عليها ، وكانت اشارة عمر على ذلك الهاما من الله وتوجيها منه ، فكان فى ذلك خير كثير ، وألهم الله المسلمين المحافظة على هذه الصلاة بجماعة ، والحرص عليها ، وحتم القرآن فيها ، وكان عاملا كبيرا من عوامل حفظ القرآن والمحافظة عليه ، والسبق فيه ، واحياء ليالى رمضان ، ويرى الفرق واضحا بين أهل السنة الذين أخذوا بسنة التراويح ، وبين الطوائف التى أنكرتها ، فى انتشار حفظ القرآن ، وتدارسه والاهتمام به .

(١) اقرأ الحديث الطويل الذى رواه أبو داود والترمذى والدارمى وابن ماجه .

(٢) اقرأ ما رواه البخارى ، عن عائشة رضى الله عنها فى « باب فضل من قام

وقد يكون ذلك بعدد كبير وجم غفير يستبعد العقل السليم تواطؤهم على الكذب ، أو تأمرهم على الشره ، فيعود ذلك على الاسلام والمسلمين بنفع عظيم وخير كثير ، أو تسد به ثلثة في نعر الاسلام ، أو يزال به وهن يدخل على المسلمين ، أو يحقق مقصدا من مقاصد الدين العظيمة ، ومن أمثلة هذا الالهام الجماعي المبارك ، الذي ألهم به عدد لا يحصى كثرة من العلماء الراسخين والعاملين المخلصين جمع القرآن في المصاحف في زمن أبي بكر ، وجمع الحديث وتدوينه في القرن الأول والثاني الى ما بعدهما ، واستنباط الأحكام والاجتهاد الفقهي من القرن الأول الى عصر المجتهدين وأئمة المذاهب في القرون الأولى ، ووضع علم النحو ، وعلم القراءات ، وأصول الفقه ، الى غير ذلك من العلوم النافعة الضرورية ، لحفظ سلامة اللغة التي نزل بها القرآن ، وصيانة القرآن من اللحن والفوضى ، وكتأسيس المدارس وتأليف الكتب ، وطرق نشر العلم ، وغير ذلك مما اقتضته الأحوال ، واختلاف الزمان والمكان .

وكالعناية بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، وتبيين غوائل النفس ومكائد الشيطان ، والربانية الصافية التي لا تشوبها البدع حتى أصبح ذلك علما مستقلا ، وتخصص له رجال بلغوا فيه درجة الاجتهاد ، واعتبروه أكبر عبادة وأعظم جهاد ، فأحى الله بهم موات القلوب ، وشفى بهم أعلاء الارواح ، نشطوا في الدعوة الى الاسلام ، فانتشر بهم الدين الحنيف في أنحاء العالم البعيدة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وكان لهم فضل خاص في انتشار الاسلام في شبه القارة الهندية (وخاصة في المناطق التي لم يغزها جيش اسلامي كـ « كشمير » و « بنغال الشرقية ») وفي جزر المحيط الهندي ، وقارة افريقيا ، وكان لهم فضل كذلك في مقاومة قوى الباطل وكلمة حق عند سلطان جائر ، ومواجهة الزحف الاجنبي (١) .

(١) اقرأ تفصيل ذلك في فصل « بطولة وكفاح ، لا بطالة واستسلام » في

كتابنا « ربانية لا دهبانية » طبع دار الفتح - بيروت ١٣٨٨ هـ .

وكالرد على الفرق الضالة ، والفلسفات الالحادية المثيرة للشكوك والشبه ، الناشئة للاضطراب فى العقيدة والوهن فى العمل ، وقد تجرد لذلك خيار المسلمين علما وذكاء ، ومقدرة علمية وقوة ايمان ، فكان كل ذلك الهاما من الله ، تكرم به جماعة كبيرة من المسلمين فى كل دور من ادوار التاريخ الاسلامى ، وفى كل مركز من مراكز العلم والحضارة ، فكان دليلا على عناية الله بهذه الأمة التى هى آخر الأمم وأمل الانسانية ، وعلى مكانتها من الله ، وهذا الالهام لم ينقطع والمدد الالهى الذى لم يتخلف ، دليل ساطع على ختم النبوة وانقطاعها بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يوجد له نظير بهذا الوضوح والاستمرار فى الأمم السابقة ، اذ لم يكن فى حاجة اليه ، فقد كانت سلسلة النبوة مستمرة ، والنبوة باقية .

التفريق بين المسلمين :

ان البلبلة الفكرية والاضطراب العظيم الذى تحدثه هذه النبوءات الكثيرة المزعومة ، وما يؤول ذلك الى تفريق بين المسلمين وتمزيق وحدة الأمة الاسلامية ، يبعث فى كل قلب مسلم وحشة وقلقا ، ولم يتعود الناس فى هذا العصر الذى يتسم بسمة اللادينية والاحاد ، أن يهتفوا بقولهم « أنا الحق » ولكنه اذا نشأت هنا فى العالم الاسلامى « هواية » التنبؤ بتأثير المرزا غلام أحمد القاديانى ، ودعواته المتحمسين ، وظهر رجال فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى يرفعون راية « النبوة » ، ويكفرون الذين لا يقبلون دعوتهم كنتيجة حتمية للنبوة ، فلا ينتج ذلك سوى بلبلة فكرية وفوضى دينية ، واصطدام بين الأفكار ، ويتوزع العالم الاسلامى بين معسكرات مختلفة ، وتقع هذه الأمة التى جاءت لمحو كل عصبية من اللون والجنس والوطن ، وانشاء الأخوة الاسلامية ، فريسة التفريق

• والتكفير ، والمصيبات الدينية (١) •

لقد أحس بخطر القاديانية الأستاذ محمد على اللاهوري (٢) ، وأبداه في إحدى مقالاته بكل قوة ووضوح ، غير أنه لم يفكر أن فاتح هذا الباب إنما هو امامه المرزا غلام أحمد ، وأنه هو أول شخص عرض فكرة استمرار النبوة كحركة ودعوة ، يقول الاستاذ محمد على يناشد أهل البصيرة والانصاف :

« أنشدكم بالله ، ان صح الاعتقاد بأن النبوة لم تنقصح ، وأن الأنبياء لا يزالون في غدو ورواح الى هذا العالم ، كما صرح بذلك محمود أحمد (٣) في « أنواز الخلافة » أفلا تزال هذه الطوائف التي تعد بالآلاف تكفر بعضها بعضا ، وتغيب الوحدة الاسلامية ؟ نفرض أن هؤلاء الأنبياء يبعثون في الجماعة الأحمديّة (القاديانية) وحدها ، أفلا تمزق بذلك الجماعة الأحمديّة نفسها ، انكم لا تجهلون السنن القديمة ، وتعرفون كيف كان الناس ينقسمون بين موافق ومعارض

(١) وقد كان العلامة الدكتور محمد اقبال الشاعر الفيلسوف ، دقيق النظر جدا في قوله المأثور : « اننا نعتقد أن الاسلام دين أوحى الله به ، ولكن وجود الاسلام كمجتمع أو أمة يتوقف على شخصية محمد صلى الله عليه وسلم . واعتقاد أنه كان آخر الرسل وخاتم النبيين ، وهو خط التحديد الدقيق بين الدين الاسلامي والديانات الأخرى •

(٢) هو أمير الفرع اللاهوري الذي يسمى « الجماعة الأحمديّة اللاهورية » وهو صاحب ترجمة القرآن الانجليزية المعروفة ، وتفسير « بيان القرآن » ومؤلفات كثيرة ، وهو لا يقول بنبوة المرزا غلام أحمد ، ويؤول ما صدر عنه من تصريحات في هذا الصدد ، إنما يعتقد أنه كان « المسيح الموعود » ، ومجدد القرن الرابع عشر الأعظم ، والمصلح الأكبر •

اقرأ لمعرفة آرائه وتأويلاته في القرآن ، الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب « القادياني والقاديانية » •

(٣) هو نجل المرزا غلام أحمد القادياني ، وخليفته الثاني •

على مبعث نبي ، ان الله الذى قضى بتوحيد شعوب العالم وأمه ،
 أيمزق المسلمين ويقطعهم اربا اربا ، يكفر بعضهم بعضا ، وتتوتر
 بينهم العلاقات والصلات ، وتصبح الأخوة الاسلامية أثرا بعد عين ؟
 اعلموا اذا كان الله قد وعد لهذا الدين بأن يظهره على الدين كله ،
 وهو لا يخلف الميعاد ، فان الاسلام لا يبتلى بهذه المحنة ، ولا يأتى
 يوم ينفرد كل نبي بحزبه ، وتتوزع المسلمين دعوات مختلفة ،
 ورايات مختلفة ، ومراكز روحية مختلفة ، ويصبح كهنتها محتررين
 للايمان والنجاة ، يكفرون سائر المسلمين» (١) .

والحاصل أن عقيدة انتهاء سلسلة النبوءات ، وتعليم البشر
 العقائد والشرائع عن طريق الوحي والملائكة والروح الأمين ، وما
 تتوقف عليه نجاتهم فى الآخرة ، على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
 العربى الهاشمى القرشى - عليه الف الف صلاة وسلام - وانقطاع
 النبوة والأنبياء بعده ، وكونه خاتم الرسل ، وموضح السبيل ،
 وامام الكل ، من أجل مواهب الله تعالى ونعمه على هذه الأمة ، ورحمة
 بالانسانية المعرقة وترقيه لها ، وتوفير جهودها وطاقتها ، من أن
 تضيق فى غير سدى ، وفيما لم تكلفه ، وجامعة لتشمل هذه الأمة
 المحمدية ، حافظة لوحدها وأصلاتها وقوتها ، باعثة لثقافتها بنفسها،
 وصلاحية دينها وخلوده ، واعتبارها نفسها مسئولة عن اتجاه العالم
 وموقفه ومصيره ، حافزة على الاصلاح والتجديد ، والجهاد فى سبيل
 الله فى كل زمان ومكان ، وهو الأساس المتين الذى يقوم عليه البناء
 الاسلامى ، كمجتمع وأمة ، ورسالة خالدة .

ألد أعداء الاسلام :

لذلك كان ألد أعداء الاسلام وأدهامهم وأمكرهم ، وأضر على
 الاسلام والمسلمين ، وأنفع لأعداء الاسلام والكائدين له من ادعى

(١) رد تكفير أهله قبله . ل محمد على . ص ٣٤ .

نبوة جديدة - فى أى مفهوم من مفاهيمها - أو دعا إليها ، وتولى
كبرها .

صدق الله العظيم :

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى الى ولم يوح
اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى اذ الظالمون
فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم ، اليوم
تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن
آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم
ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم
أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم
تزعمون « (١) » .

* * *

(١) سورة الأنعام : ٩٣ - ٩٤ .

إفريس

صفحة

- ٣ - كلمة المؤلف
- ٥ - دين يبلغ ذروة الكمال ، وأمة تظلم بأعياء خلافة النبوة
- ٦ - اعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمد صلى الله عليه وسلم وانقطاعها بعده
- ٨ - أساليب القرآن وطرقه فى تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة
- ٩ - صفات لا تليق الا بالنبي الخالد والرسول اثنان
- ١٠ - القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها ، وكيف أمكن ذلك ؟
- ١٤ - صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما يتصل به
- ١٥ - وصف القرآن للرسالة المحمدية وما يقتضى ذلك
- ١٧ - عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات ، واستغناؤها عن تطوير وتعديل
- ٢٢ - الصحف السماوية السابقة والقرآن فى ميزان العلم والتاريخ
- ٣٢ - سكوت القرآن عن بعثة نبي جديد
- ٣٣ - الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة
- ساع الصحابة والأمة الاسلامية على انقطاع النبوة

- بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واستبشاعها ورفضها
 ٣٥ هذه الدعوى
- ٣٧ — انقطاع النبوة تكريم للانسانية ورأفة بها
- مشكلة كثرة المتنبيين فى الديانات السابقة وخطرها على
- ٤١ سلامة العقيدة ووحدة الديانة
- ٤٦ — ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع هذا الدين الكامل
- حيوية هذا الدين ، وقوة توليده ، وانتاجه للعارفين
- ٤٧ وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين
- ٤٩ — اتصال تاريخ الاصلاح والتجديد فى الاسلام ، وسره
- جناية عقيدة استمرار النبوة أو « الامام المنتظر » على
- ٥٠ الشعور بالمسئولية ، وقوة مقاومة الفساد
- ٥٢ — رحمة بالامة الاسلامية ومنة عليها
- ٥٣ — الحارس من الفوضى الفكرية
- ٥٣ — فضل عقيدة ختم النبوة على المدنية
- ٥٥ — فتنة المتنبيين الكبرى
- فتنة « المكالمات والمخاطبات الالهية ورؤية البارى تعالى
- ٥٦ فى الدنيا
- ٥٩ — الالهام الجماعى لمصلحة الاسلام والمسلمين
- ٦٢ — التفريق بين المسلمين
- ٦٤ — ألد أعداء الاسلام

هذا الكتاب

أن يكون هناك عمر طبيعي وحيوى لكل صور الحياة .. تلك
حكمة الـهية بالغة ولازمة لمنطق الأشياء .. فاذا ما انتهى هذا
العمر .. لم تعد هناك حاجة اليها .. أما اذا كانت الحاجة
اليها قائمة ودائمة .. فانها تبقى على اختلاف الزمان والمكان
.. تستمر وتنتشر .. وتورق وتثمر ...

وبنفس المنطق الذى جرت به هذه الحكمة على صور
الحياة .. جرت أيضا على المثل الانسانية .. التى من أجلها
أنزل الله تعالى نعمة النبوة .. فبقدر ما بقيت الحياة الانسانية
في مراحلها وظروفها المختلفة تصبو الى نبى جديد .. والى
رسالة جديدة .. بقدر حاجتها بعد الأسوة الحسنة .. محمد
صلى الله عليه وسلم ، ورسالته الخالدة .. الاسلام .. الى
عقيدة ختم النبوة .. ذلك أن الله سبحانه قد فرض هذه العقيدة
حين شاعت حكمته تمام وكمال المثل الانسانية .. فجاءت النبوة
في الاسلام بالغة كمالها الأخير .. مدركة الحاجة الانسانية
الى انهاء النبوة نفسها ..

حسين علي شمس

٢٥

المختار الاسلامى

ص.ب ١٧٠٧ القاهرة

هاتف ٩٣٦٤٩٦

مطبع الاحرام التجارية